الجمهورية التركية

جامعة صقاريا/ معهد العلوم الاجتماعية

رواية "زمن الخيول البيضاء"

دراسة أدبية تحليلية

رسالة ماجستير

نسرين عقلة

الأستاذ المشرف: أ.د. أحمد بستانجي

أيار– مايو/ 2019

T.C.
SAKARYA ÜNİVERSİTESİ
SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ

İBRAHİM NASRALLAH'IN "ZEMENU'L- HUYULİ'L BEYZA" ADLI ROMANININ TAHLİLİ

YÜKSEK LISANS TEZİ

Nisreen OQLAH

Enstitü Anabilim Dalı: Temel İslam Bilimleri

Enstitü Bilim Dalı: Arap Dili ve Belagatı

"Bu tez 29/05/2019 tarihinde aşağıdaki jüri tarafından Oybirliği /~~Oyçokluğu~~ ile kabul edilmiştir."

JÜRİ ÜYESİ	KANAATİ	İMZA
Prof. Dr. Ahmet BOSTANCI	Kabul	
Doç.Dr. Hamza Ermiş	Kabul	
Dr.öğr.üyesi.Musa Alak	Kabul	

SAKARYA ÜNİVERSİTESİ	T.C. SAKARYA ÜNİVERSİTESİ SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ TEZ SAVUNULABİLİRLİK VE ORJİNALLİK BEYAN FORMU	Sayfa : 1/1

Öğrencinin

Adı Soyadı	:	NISREEN MOUSA ABDALLAH OQLAH
Öğrenci Numarası	:	1260Y08046
Enstitü Anabilim Dalı	:	TEMEL İSLAM BİLİMLERİ
Enstitü Bilim Dalı	:	ARAP DİLİ VE BELAGTI
Programı	:	☑YÜKSEK LİSANS ☐DOKTORA
Tezin Başlığı	:	İBRAHİM NASRALLAH'IN "ZEMENU'L- HUYULİ'L BEYZA" ADLI ROMANININ TAHLİLİ. روایة زمن الخيول البيضاء" دراسة أدبية تحليلية"
Benzerlik Oranı	:	%15

SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ MÜDÜRLÜĞÜNE,

☐ Sakarya Üniversitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü Enstitüsü Lisansüstü Tez Çalışması Benzerlik Raporu Uygulama Esaslarını inceledim. Enstitünüz tarafından Uygulalma Esasları çerçevesinde alınan Benzerlik Raporuna göre yukarıda bilgileri verilen tez çalışmasının benzerlik oranının herhangi bir intihal içermediğini; aksinin tespit edileceği muhtemel durumda doğabilecek her türlü hukuki sorumluluğu kabul ettiğimi beyan ederim.

...../...../20.....

☐ Sakarya Üniversitesi ..... Enstitüsü Lisansüstü Tez Çalışması Benzerlik Raporu Uygulama Esaslarını inceledim. Enstitünüz tarafından Uygulama Esasları çerçevesinde alınan Benzerlik Raporuna göre yukarıda bilgileri verilen öğrenciye ait tez çalışması ile ilgili gerekli düzenleme tarafımca yapılmış olup, yeniden değerlendirilmek üzere .....@sakarya.edu.tr adresine yüklenmiştir.

Bilgilerinize arz ederim.

...../...../20.....

Uygundur

Danışman
Unvanı / Adı-Soyadı: Prof.Dr. Ahmet Bostanci

Tarih:18/06/2019

İmza:

☑KABUL EDİLMİŞTİR ☐REDDEDİLMİŞTİR EYK Tarih ve No:	Enstitü Birim Sorumlusu Onayı

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الإسراء:1)

وبه نستعين؛

إن فلسطين حق، ويجب أن يعود لأصحابه؛ أصحابه الذين أُرغموا على الخروج منه، لكنهم ما فتئوا يحلمون بالرجوع حتى وافت أكثرهم المنيّة، لكنهم وإن فشلوا في الرجوع فقد نجحوا في زرع هذا الحق في قلوب أبنائهم المتشظين في بقاع العالم، وبعد مرور 70 سنة على هذا البعد لم ينسوا ولن ينسوا... فجاءت هذه الدراسة – رسالتنا في الماجستير– من هذا المنطلق.

ولقد اشتهرت مقولة "سيموت كبارهم، وينسى صغارهم" لِدافيد بن غوريون؛ أول رئيس وزراء لإسرائيل، فأصبحت تلك المقولة دافعة لكاتب روايتنا "زمن الخيول البيضاء" إبراهيم نصرالله، لكتابة أعماله الأدبية، ولعل عبارته المشهورة في الرواية على لسان بطلها خالد: "أنا لا أقاتل كي أنتصر، بل كي لا يضيع حقي"، لعلها جواب لابن غوريون وأتباعه.

في بداية دراستنا لهذا الموضوع كانت أولى الخطوات التي وجب الانطلاق منها هي الرواية رواية "زمن الخيول البيضاء"، فهي المصدر الأساسي للدراسة، فكان لا بد من قراءتها بشكل متمعن للاطلاع على موضوعها ولغتها وشخصياتها، لتكوين الفكرة الأولية عن الرواية، ثم جمع المؤلفات والمقالات والأخبار التي تناولت هذه الرواية نقداً ودراسة، ثم جمع المراجع التي تناولت موضوع الرواية بشكل عام، والكتب التي تناولت الروايات الأردنية وروايات إبراهيم نصرالله بشكل خاص. وبما أن نصرالله معاصر كانت فرصة لقائه متاحة.

من هنا جاء التحليل لهذه الرواية شاملاً، فهو يعتمد على رؤية شمولية للتحليل الأدبي للرواية معتمداً أن الكل الشامل للرواية في بنيتها المتكاملة، يعتمد على وحدة وتوازن الأجزاء المكوِّنة لها، صارفاً النظر عن أخذ الرواية بإطارها الجزئي أو بشكل أدق من زاوية محددة فقط. وبذلك كان الحرص على أن تكون الرسالة هي تجميع الزوايا المبعثرة للنقاد في كلٍّ شاملٍ ومتكامل، لتسليط الضوء على الجوهر الملحمي للرواية.

ولا يفوتني في هذا المقام بأن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور أحمد بستانجي الذي تكرّم بالإشرف على رسالتي، وإلى زوجي العزيز الذي ساندني لإتمام هذا العمل، وإلى أختي عالية التي تحملت عبء البحث في الأردن، وإلى كل صديق مدّ يد العون لي؛ لهم جميعا كل الشكر والعرفان.

نسرين عقلة

29.05.2019

الفهرس

الفهرس ..... **i**

الملخص باللغة التركية..... **iii**

الملخص باللغة العربية..... **iv**

مدخل **1**

الفصل الأول: إبراهيم نصرالله والملهاة الفلسطينية **4**

المبحث الأول: التعريف بالكاتب (إبراهيم نصرالله) **4**

المبحث الثاني: جدلية مفهوم "الملهاة الفلسطينية" وتجلياته..... **14**

المبحث الثالث: نظرة داخل "الملهاة الفلسطينية"..... **17**

المبحث الرابع: نبذة عن "زمن الخيول البيضاء"..... **19**

الفصل الثاني: التحليل الأدبي للرواية **23**

المبحث الأول: الشخصية..... **24**

شخصيات الرواية 24

تقديم الشخصية 26

أهم الشخصيات في الرواية..... 28

شخصية المرأة في الرواية 42

شخصية الآخر 44

المبحث الثاني: الزمان..... **52**

الترتيب الزمني..... 57

المدة الزمنية..... 59

المبحث الثالث: المكان..... **62**

المبحث الرابع: الحدث **66**

المبحث الخامس: السرد **70**

المبحث السادس: النسق الثقافي..... **73**

الفصل الثالث: خصائص الأسلوب..... **76**

المبحث الأول: الأسلوب..... **76**

المونتاج..... 76

المنولوج الداخلي 81
البِنيات الأسلوبية..... 82

المبحث الثاني:اللغة..... 87
اللغة العامية 88
اللغة الشاعرية 89
الاقتباس 92
التكرار..... 98
العتبات 102

الخاتمة 111

المصادر و المراجع..... 114

السيرة الذاتية..... 118

Sakarya Üniversitesi
Sosyal Bilimler Enstitüsü Tez Özeti

Yüksek Lisans	X	**Doktora**	

Tezin Başlığı: İBRAHİM NASRALLAH'IN "ZEMENU'L- HUYULİ'L BEYZA" ADLI ROMANININ TAHLİLİ

Tezin Yazarı: Nisreen OQLAH	**Danışman:** Prof. Dr. Ahmet Bostancı
Kabul Tarihi: 29.05.2019	**Sayfa Sayısı:** 119
Anabilim Dalı: Temel İslam Bilimleri	**Bilim Dalı:** : Arap Dili ve Belagatı

Bu çalışma İbrahim Nasrallah'ın "Beyaz Atlar Zamanı" adlı romanın edebi tahlilini içermektedir. Bu tahlilin yanı sıra romanın edebiyat dünyasındaki yerine ve aldığı ödüllere de değinilmiştir. Çalışma giriş, üç bölüm ve sonuçtan oluşmaktadır. Girişte tezin konusu, önemi ve yöntemi ele alınmıştır. Birinci bölümde yazarın hayatı ve eserleri anlatıldıktan sonar, Filistin trajikomedi serisi ve bu seride yer alan romanlar ve konuları verilmişkten sonra "Beyaz Atlar Zamanı" adlı romanın özeti, nitelikleri ve eleştirmenlerin görüşleri sunulmuştur. İkinci bölümde romanın zaman, mekan, kurgu, kültürel ortam ve kahramanlar gibi unsurlarına değinilmiştir. Son bölümde ise Nasrallah'ın romanda kullandığı üslup, ayrıntıları ile ele alınmıştır. Kullandığı dil, yaptığı alıntılar, tekrarlar ve benzetmeler burada yer alan başlıklardandır. Yazarın ele aldığı konulara nasıl giriş yaptığına da bu bölümde yer verilmiş, sonuç ve tavsiyeler bölümü ile tez sona ermiştir.

Anahtar Kelimeler: Modern Arap Edebiyatı, İbrahim Nasrallah, Arap Edebiyatında Filistin

جامعة صقاريا

معهد العلوم الاجتماعية ملخص الرسالة

ماجستير	X	**دكتوراه**	

عنوان الرسالة: زمن الخيول البيضاء دراسة أدبية تحليلية

كاتب الرسالة: نسرين عقلة | **المشرف:** الأستاذ الدكتور أحمد بستانجي

تاريخ القبول: 29. 05. 2019 | **عدد الصفحات:** 119

القسم العام: العلوم الإسلامية الأساسية | **القسم الفرعي:** اللغة العربية والبلاغة

تتناول هذه الدراسة رواية "زمن الخيول البيضاء" لكاتبها إبراهيم نصرالله دراسة أدبية تحليلة، حيث حرصت هذه الدراسة على إبراز أهم الأسباب التي أكسبت هذه الرواية المكانة والجوائز؛ قُسّمت هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة. تناولت المقدمة أهمية الرواية، والموضوع، والدراسات السابقة، ومنهجية البحث.

الفصل الأول: وفيه أربعة مباحث تناولنا الكاتب إبراهيم نصرالله حياته وأعماله شعرا ونثرا، وروايات الملهاة الفلسطينية من حيث مفهوم الملهاة والجدال الحاصل فيه، ثم أهم روايات الملهاة وموضوعها، وبعدها قمنا بوصف وتلخيص رواية "زمن الخيول البيضاء" وآراء أهم النّقاد فيها.

الفصل الثاني: توسعنا في دراسة عناصر الرواية (الشخصية، والزمان، والمكان، والحدث، والسرد، والنسق الثقافي) من ناحية نظرية وتطبيقية.

اشتمل الفصل الثالث: على دراسة خصائص أسلوب نصرالله في هذه الرواية، فوضّحنا أسلوبه وبنيات أسلوبه، ثم بحثنا في لغة الرواية العامية والشاعرية، والاقتباسات التي استعان بها الروائي لبناء روايته من القرآن والحديث والموروث الثقافي وصوت الراوي، وتبعته دراسة أسلوب التكرار في الرواية سواء أكان في اللفظ أم في العبارة أم في المشهد، والتمثيل على كل منها. وأخيرا توقفنا عند العتبات بكل أشكالها، والتي أجاد نصرالله استغلالها بما يتماشى مع روح روايته.

وفي الخاتمة بيّنا أهم النتائج التي توصلنا لها، وبعض التوصيات.

الكلمات المفتاحية: إبراهيم نصرالله، روايات فلسطين، الرواية.

مدخل

يتنازع الساحة الأدبية كثير من الروايات، ولكل واحدة منها مكانتها ووزنها، لكن نادراً ما يستوقفنا بعضها؛ فنجد أنفسنا داخلها وقد فُصمنا عن عالمنا، وكأننا داخل فيلم سينمائي، نتفاعل مع أحداثه وأشخاصه نفرح لفرحهم ونبكي لحزنهم، نلاحق أحداثه ولا نستطيع التحرر منه حتى نصل إلى نهايته، فنستفيق على عالمنا وكأننا كنا قد خُطفنا منه.

فرواية "زمن الخيول البيضاء" للأديب إبراهيم نصرالله؛ هي إحدى تلك الروايات التي تستحق منا كل التقدير والإجلال، والتي تسعى هذه الدراسة لتظهر كل ما تميزت به واستحقت المكانة التي هي عليها. "زمن الخيول البيضاء" هي إحدى روايات سلسلة "الملهاة الفلسطينية"، وتكاد تكون تاج هذه السلسلة التي تناولت القضية الفلسطينية من جوانب مختلفة، ولأن "نصرالله" ابن هذه القضية وابن اللاجئين وابن الشتات؛ فقد أضاف للرواية المصداقية والواقعية والتميّز.

أهمية الموضوع:

جاءت هذه الدراسة لإظهار أسباب احتلال رواية "زمن الخيول البيضاء" تلك المكانة في الساحة الأدبية والنقدية، والتي أهلتها لنيل جائزة البوكر على القائمة القصيرة.

إشكالية البحث وتساؤلاته:

يعتبر هذا البحث مساهمة في إبراز الجوانب الأدبية في رواية "زمن الخيول البيضاء"، ولتحقيق الأهداف المرجوة منه سعت الدراسة إلى طرح عدة أسئلة تشكّل إطار البحث في هذه الإشكالية، يمكن إجمالها فيما يلي:

- كيف تعامل إبراهيم نصرالله مع عناصر رواية "زمن الخيول البيضاء"، وما جديده فيها؟
- ما الأسلوب الذي تميزت به هذه الرواية، وجعلها تحتلّ مكانة متميزة بين روايات الملهاة الفلسطينية؟

أهداف الدراسة:

تسعى دراستنا للوصول إلى مجموعة من الأهداف، وهي:

- إظهار الجوانب الأدبية في "زمن الخيول البيضاء".
- تسليط الضوء على أهمية "زمن الخيول البيضاء" الرواية الملحمية أدبياً وتاريخياً، وتميزها من بين الأعمال الأدبية، واستحقاقها للجوائز المختلفة.
- محاولة الربط والموازنة بين عناصر الرواية جميعاً، وإخراجها كُلاً شاملا يعطي الرواية بُعدها الحقيقي.
- إحياء الموروث الشعبي والثقافي للشعب الفلسطيني بين أبنائه في الشتات، ونشره للثقافات الأخرى.

منهج البحث:

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج البنيوي، حيث يقوم هذا المنهج على عرض العناصر الأدبية، ومن ثَمّ تحليليها، ومحاولة فهم نظامها، والربط بين العلاقات التي تحكمها.

الدراسات السابقة:

بعد الاطلاع على فهارس الأبحاث والدراسات العليا في الجامعات، وبعد البحث والتقصي لم نجد رسالة كتبت في هذا الموضوع، ولكن وجدنا بعض الدراسات التي كتبت بالعناوين الآتية:

1. رسالة ماجستير بعنوان: "الرواية التاريخية عند إبراهيم نصرالله زمن الخيول البيضاء وقناديل ملك الجليل نموذجا، (دراسة تحليلية نقدية)"، للباحث إبراهيم علي أبو تحفة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2017.
قام الباحث هنا بتحليل عناصر روايتي: "زمن الخيول البيضاء" و "قناديل ملك الجليل" من ناحية تاريخية، والموازنة بين المتخيل والتاريخي فيهما، ودراسة البناء الفني للروايتين.

2. رسالة ماجستير بعنوان: "بنية الخطاب الروائي عند إبراهيم نصرالله (رواية زمن الخيول البيضاء أنموذجا)"، للباحثة بوطيبة ربيحة، جامعة زيان عاشور، الجزائر، 2017. قامت الباحثة بدراسة عناصر بناء الشخصية والفضاء والزمن التي ينتهجها الكاتب إبراهيم نصرالله من خلال نموذج الدراسة روايته "زمن الخيول البيضاء" معتمدة على المنهج البنيوي والمنهج السيميائي أيضا.

تتميز دراستنا هذه عن هاتين الدراستين السابقتين في عدة جوانب منها:

أ) كان تركيز الرسالة الأولى على التاريخ في الرواية، أما الرسالة الثانية فركّزت على بنية الخطاب فيها، أما دراستنا فجاءت شاملة مستوعبة لكل تفاصيلها.

ب) تناولت دراستنا حياة إبراهيم نصرالله بشكل أكثر تفصيلا؛ فالرسالة الأولى لم تتناوله أبدا، أما الرسالة الثانية فتناولته بعجالة.

ت) لم تبحث أية منهما عن مفهوم "الملهاة الفلسطينية" أو التعريف برواياتها.

ث) لم تذكر أية منهما آراء النقاد في الرواية.

ج) في تحليلهما للشخصية لم يكن التحليل فيهما موسّعا وشاملا.

ح) لم تتناول أي منهما ظاهرة التكرار أو الاقتباس أو البنيات أو العتبات أو النسق الثقافي.

يتكون هذا البحث من ثلاثة فصول وخاتمة:

الفصل الأول: (إبراهيم نصرالله والملهاة الفلسطينية) قُسم لأربعة مباحث؛ المبحث الأول: التعريف بالكاتب إبراهيم نصرالله: حياته وأعماله الأدبية. ثم المبحث الثاني: بعنوان جدلية مفهوم "الملهاة الفلسطينية" وتجلياته، والمبحث الثالث: نظرة داخل الملهاة، والمبحث الرابع: نبذة عن رواية "زمن الخيول البيضاء".

الفصل الثاني: (التحليل الأدبي للرواية) قُسّم إلى خمسة مباحث؛ المبحث الأول: الشخصية، المبحث الثاني: الزمان، المبحث الثالث: المكان، والمبحث الرابع: الحدث، المبحث الخامس: السرد، المبحث السادس: النسق الثقافي.

الفصل الثالث: (خصائص الأسلوب) قُسَّم إلى مبحثين؛ المبحث الأول: الأسلوب، والمبحث الثاني: اللغة.
ثم أُردف بخاتمة، ثم المصادر والمراجع.

الفصل الأول: إبراهيم نصرالله والملهاة الفلسطينية

سنتناول في هذا الفصل أربعة مباحث نعرّف فيها الكاتب إبراهيم نصرالله من جوانب عديدة، ثم نوضح معنى الملهاة لغة واصطلاحا، والجدل الحاصل حول المفهوم وآراء النقاد به، ثم التعريف بسلسلة الملهاة الفلسطينية وروايّاتها، وننهيه بنذة عن "زمن الخيول البيضاء".

المبحث الأول: التعريف بالكاتب (إبراهيم نصرالله)

من المهم التعرّف على حياة الكاتب وأعماله لفهم موضوعنا جيدا، لتأثيرها في اتجاهات وأفكار وأسلوب الكاتب، لذا نتناول في هذا المبحث حياته، ومؤلفاته، والجوائز التي نالها، والدرسات حول أعماله.

حياته

إن السيرة الذاتية للكاتب هي انعكاس حقيقي لتجليات إبداعاته الأدبية بإطارها العام، والذي تجسّدت من خلال مُجمل أعماله الأدبية والإبداعية. والباحث في سيرة إبراهيم نصرالله يجد أنه في بداية حياته عاش مثل أي لاجئ؛ فقد وُلد في مخيم الوحدات الأردني سنة 1954، بعد أن هُجّر والداه من قريتهما في فلسطين، فعاش في الخيمة ودرس فيها أيضاً والتي كانت وقتها تابعة لوكالة غوث اللاجئين (UNRWA) [1]، المخيم الذي كان يظنه الفلسطيني مجرد مأوًى مؤقتٍ، يعود من بعده لبلاده، أصبح هو المستقَر الذي نما وتطور وعاش به سنواتٍ عجافاً، عاش فيه لاجئاً وما زال، وكذا أرضه ما زالت محتلة. لكن هذا المكان كان له أثر في صقل شخصية الأديب نصرالله؛ فكما يقولون: "المعاناة تولّد الإبداع"، فلم يستسلم أمام تلك المعاناة، بل صارعها وانتفض لبناء مستقبله،لذا سنرى مواضيع مؤلفاته تدور حول قضايا إنسانية راقية تناولها بأسلوب راقٍ مميّز. ولم تقتصر المعاناة في حياة نصرالله على المخيم، بل عاشها أيضا في السعودية بعد أن سافر إليها كمدرّس لمدة عامين(1976- 1978)، لكن لم يكن الشعر كافياً للتعبير عنها، فجاءت "برراي الحمّى" أول رواية له عام 1985، لتجسّد حجم المرارة التي عاشها هناك واصطدامه المباشر بالموت[2]. وبعد أن رجع إلى الأردن عمل كصحفي في إحدى الصحف، ثم كمستشار ثقافي لمؤسسة عبد الحميد شومان. وفي نهاية عام 2006 قرر التفرغ لعمله الكتابي[3]. وهو الآن عضو في الاتحاد العام لرابطة الكتّاب العرب، وقد كان عضواً في رابطة الكتّاب الأردنيين لكنه استقال مؤخراً بسبب الازدواجية التي تتعامل بها هذه الرابطة خصوصاً بعد فوزه بجائزة البوكر.

---

[1] عبدالله برمي، "إبراهيم نصرالله"، *موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني*، 2014، ج4، ص4

[2] محمد عبيد، وسوسن البياتي، *الكون الروائي قراءة في الملحمة الروائية الملهاة الفلسطينية لإبراهيم نصرالله*، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007)، ص10

[3] نايات الغربة، "نغم، إضاءات على: أديب من وطني- شاعر المقاومة والروائي القدير- أ. إبراهيم نصرالله"، http://watan.n2ta.com.2015/07/13

يُعتبر نصرالله من كتّاب الرواية الحديثة في الأردن أمثال تيسير السبول وغالب هلسا ومؤنس الرزاز وجمال ناجي وغيرهم، ممن نقلوا الكتابات الروائية إلى أمداء لا متناهية[4]، ولكن هل نعتبره كاتباً أردنياً أم كاتباً فلسطينياً؟
لم يكن لأي فلسطيني ولد في الأردن أن ينسب نفسه لأحداهما، بل يعتبر نفسه خليطاً منسجماً منهما؛ ثقافةً وعادات وسياسة، فالفصل هنا ليس موضوعياً.[5] –وهذا ما نواجهه فعلياً–.

ذكرنا فيما سبق اتخاذ نصرالله أعماله منصة للتعبير عن القيم الإنسانية الفاضلة، ورفضِ الظلم وانتقاده؛ وخاصة القضية الفلسطينية والتي احتلّت مساحة واسعة في كتاباته، لذا عانى كثيراً بسبب كتاباته؛ حيث تم منعه من السفر لمدة ست سنوات متواصلة خلال الثمانينات، كما تم منعه من إقامة أمسيات شعرية وأدبية[6]، وفي عام 2006 تم تحويله إلى القضاء، بسبب أحد دواوينه الشعرية، وقد كان يمكن أن يواجه حكماً بالسجن، وكانت المرة الأولى التي يتم فيها تحويل كاتب إلى القضاء في الأردن بسبب كتاباته.[7] لكنّ ذلك لم يمنع نصرالله من مواصلة رسالته ودفاعه عن القضية الفلسطينية، ولعل اعتماد قصائده لتكون أناشيد لفرقة بلدنا الشعبية بقيادة كمال خليل، من الأدلة الحية على روحه الثورية والتي كان يشحذ من خلالها أرواح سامعيها، والتي بدورها جعلت أعضاء الفرقة عرضة للمضايقات الأمنية والاعتقال في الأردن.[8] ومنها نشيد يا راية شعبي المشهور:

يا راية شعبي المرفوعة
في غزة و في مرج عيون
راح نملا بالثورة الكون
هي الشهدا شعب بحاله
بدل الواحد خذ مليون

نجد أن فلسفته–بعد استقراء أعماله– قد اعتمدت في ذلك على الربط بين الجانب الإبداعي الأدبي ومنطلقه الفكري للوصول إلى شحنة تعبوية غير مباشرة للشباب الفلسطيني أولاً والعربي ثانياً والأممي ثالثاً، من أجل مقاومة الاحتلال والظلم والطغيان، ناسجاً بذلك تحالفاً غير مباشر بين مكنوناته الإبداعية وجمالية لوحاته التصويرية مع التعبئة المباشرة وغير المباشرة للانخراط في المقاومة المسلحة معتبراً أن السلاح بهذا المعنى هو سلاح بشكله المباشر وغير المباشر.

---

[4] سليمان الأزرعي، *الرواية الجديدة في الأردن*، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997)، ص141.
[5] شكري عزيز الماضي، *الرواية العربية في فلسطين والأردن في القرن العشرين مع ببليوجرافيا*، (الأردن: دار الشروق، 2003)، ص13،(بتصرف).
[6] إبراهيم نصرالله، *السيرة الطائرة*، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2012)، ص82–84.
[7] جريدة الدستور، "مصادرة المطبوعات لأعمال إبراهيم نصرالله"،27 حزيران 2006، https://www.addustour.com/articles
[8] غيداء السالم، "فرقة بلدنا الأردنية تعيد توثيق أعمالها الثورية"، 12 نيسان 2015، http://www.alhayat.com/Articles

ونعني هنا سلاح الفكر والثقافة والإعلام. وهو يعتبر أن فلسفته تقوم على أن الكلمة والأدب لا تقل أهمية عن المدفع والرشاش في مقاومة الاحتلال.

وعلى الرغم من هذه الروح الثورية لدى إبراهيم نصرالله إلاّ أنه لم يُذكر عنه انتماؤه لأي حزب في المقاومة الفلسطينية أو غيرها، كما أنه لا يقبل أن يكون الدين أهم من الوطن أو أن تكون الآخرة أهم من هذه الدنيا، فالحياة عنده أعظم منحة سماوية للبشر فلا يقبل أن يكون الموت هدفاً.[9] [10]

ومما يُعرف عن إبراهيم نصرالله هو تميّزه عن كثير من الكتّاب بجمعه فنوناً أخرى إلى جانب كونه روائيا؛ فهو روائيّ وشاعر وفنان تشكيلي وناقد سينمائي، على الرغم من أنّ الجمْع بين أكثر من فن يُعتبر أمراً شائكاً، لأن كثيراً من الشعراء الذين حاولوا كتابة الرواية، أو كتبوها في العالم العربي لم يوفّقوا؛ فالشعر والرواية فنّان مختلفان؛ بل إن طبيعة ممارستهما مختلفة تماما، لذا يرى نصرالله نفسه محظوظاً في جمعه لتلك الفنون واكتشافه لعدد الحيوات التي في داخله، والتي اكتشفها بعد أن مارس تلك الفنون.[11] وهذه شهادة من **سليمان الأزرعي** أحد الكتّاب الأردنيين، يقول فيها:
"ولا أنكر أنني بادئ ذي بدء، قرأت الرواية الأولى للشاعر إبراهيم نصرالله، بروح الناقد الذي يسعى للقبض على ضحية سهلة .. على شاعر وقع في الفخ.. ولكنني بعد متابعتي لأعمال نصرالله الروائية، بتّ مطمئناً أن الشاعر الذي يَحترم شاعريته ويسعى لتطويرها وتحصينها من التداعي، يحترم تجاربه الأخرى بالقدر نفسه، ويُقبل عليها بالجِدّية إياها، فتأتي جميلة كالشعر، كشعر إبراهيم نصرالله. ويمكن ... أن يلاحظ بوضوح فضل الشاعر على الروائي، ووقوف الشاعرية والخيال الشعري إلى جانب كل الأدوات الفنية اللازمة للروائي وهو يشيد معمار روايته".[12]
فهذه شهادة صريحة في تمكّن نصرالله من هذه الفنون وخدمة كل منها لفنّ آخر عنده. وهو ما يتأكد لكل من يقرأ أعماله.

وتعدّ الكتابة بالنسبة لإبراهيم نصرالله –كلاجئ– هي "مسألة وجودية"، فهو يجد نفسه في تحدّ أمام مقولة (غولدا مائير): "لو كان الفلسطينيون شعباً لكان لهم أدب". [13] وكأن لسان حاله يقول: "إنني أكتب لأنني موجود، ومهما حاولتم أيها الصهاينة من طمس الحقائق بسرقة الأرض وتغيير ملامحها وقتل وطرد الشعب فإنه موجود".

ولقد تأثر نصرالله بكل كاتب قرأ له سواء كان من أندونيسيا أو جنوب إفريقيا أو غيرها، وقرأ لكتّاب أتراك، مثل يشار كمال وعزيز نيسين وناظم حكمت وسواهم، كما قرأ الأدب القديم.**[14]** كما تأثر بالسينما والتي كان يسترق الوقت

---

[9] إبراهيم نصرالله، مقابلة شخصية، عمان، الأردن، 29 آب 2014.

[10] ونحن نختلف مع نصرالله في هذا الفكر فالله جعل الدين أساساً لضبط الوطن ودستوره، والدنيا ما هي إلا طريق للآخرة.

[11] بيانكا ماضية، "مع الشاعر والروائي إبراهيم نصرالله"، 19كانون الثاني 2008، http://www.odabasham.net.

[12] سليمان الازرعي، *الرواية الجديدة في الأردن*، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997)، ص72.

[13] " تناسل الإبداع في حياة واحدة"، 11 حزيران 2018، https://aawsat.com/home/article

لمشاهدتها منذ طفولته [15]، ويرى أنه لا انقطاع بين مشروع السينما ومشروع الأدب في تأملهما لقضايا الحياة والموت، الوجود والعدم، الجريمة والعقاب... وكل تلك الثنائيات[16]. ولتعلقه بالسينما ألّف كتابين بهما وهما: (هزائم المنتصرين وصور الوجود).

ويُعتبر نصرالله من زمرة الكتّاب العرب الأكثر تأثيرا على قرائه ومتابعيه وأكثرهم انتشاراً، فمن اللافت للنظر أن الفئة الأكثر انتظاراً وشغفاً لأعماله هي فئة الشباب، وهذا بحد ذاته يعبّر عن مدى تأثرهم بأعماله، ولعل اختياره من بين 100 أقوى شخصية عربية فيمن اختارتهم (مجلة البزنس) دليل على ذلك.[17] وهو كذلك يحظى بميزة غير إقليمية؛ ونعني بذلك ترجمة أعماله إلى لغات مختلفة،[18] علاوة عن الكتب النقدية الصادرة عن تجربته، مضافاً إليها رسائل الماجستير والدكتوراه في الجامعات العربية والأجنبية.[19]

بجانب هذا كله فلقد نال جائزة القدس للثقافة والإبداع في عام 2012 والتي تمنح لأول مرة تقديراً لأعماله الأدبية. وفي يناير 2014، تطوع للصعود إلى قمة كليمنجارو دعماً لأطفالٍ فلسطينيين فقدوا سيقانهم بسبب قوات الإحتلال الصهيونية، ووصلوا القمة، وقد كتب عن هذه التجربة رواية بعنوان (أرواح كليمنجارو) صدرت في عام 2015.[20].

شعره:

يَعتبر نصرالله أن للفلسطيني أُمّين: أمّه التي ولدته، والقصيدة؛ وأن القصيدة هي التي كانت المصدر الثقافي الوجداني الأكثر تأثيرا في البناء الروحي للإنسان.[21] دخل نصرالله عالم الأدب للتعبير عن مكنوناته بالشعر؛ لذا شهدت تجربته الشعرية تحولات كثيرة، من بين بنية شكلية وموضوعية تنوعت من خلالها قصائده إلى قصائد طويلة وقصيرة وقصيرة جداً، وقصائد نثرية وملحمية وقصائد سيرة شعرية، أضافت فضاءات إنسانية جديدة أثرت في الحركة الشعرية العربية، ومن أهم قصائده الملحمية قصيدة "راية القلب ضد الموت". وتوّجت أعماله في قصيدة "فضيحة الثعلب" التي كتبها عام 1990.

---

14 إبراهيم نصرالله، مقابلة شخصية، عمان، الأردن، 29 آب 2014.

[15] إبراهيم نصرالله، *هزائم المنتصرين*، نسخة الكترونية، ص4.

[16] إبراهيم نصرالله، *صور الوجود*، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2014)، ص6.

[17] "قائمة أقوى 100 شخصية عربية 2018"، 15 حزيران 2018، Arabianbusiness.com

[18] للغة الإنجليزية، الإيطالية، الدنماركية، التركية.

[19] يوجد تفصيل ذلك في نهاية هذا المبحث.

[20] موقع جائزة كتارا للرواية العربية، http://www.kataranovels.com

[21] إبراهيم نصرالله، *السيرة الطائرة*، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2012)، ص 117-118.

أُرتِّبُ عتمتي بأناقةِ الوطواط

ودهاليزي بحِكْمَةِ الخُلْد

وأُقنعُ السّقفَ أنه ليسَ هنا

وأُسرُّ للجدارِ بخبثٍ:

أينَ أخوتُك؟

وأهمسُ للباب؟

هل تنتظرُ أحداً في هذا العَراء؟!!

وأقولُ للنافذة:

أيُّ معجزةٍ هذه التي رفَعتكِ هكذا في الهواءِ دونَ إطار؟!!

أُطلقُ مكيدةَ القَتيل في برودةِ المكان

وأضحكُ أمامَ شجارِ الجمادات

كانت تجربة نصرالله في البداية باستخدام اللغة العامية، اعتقادا منه أنها الأقرب للإنسان العادي وفهمه، لكنه سرعان ما أدرك أن اللغة العامية مع كل ما تتميز به من خصوصيات وجماليات، إلا أنها تظل عاجزة عن الإحاطة بكل المعاني التي تتفتّق عن تجليات الإبداع.[22]

يُلمح اهتمام نصرالله بالتراث الإنساني، من خلال استخدامه للعديد من الرموز، وتوظيفها بالتجاور مع رموز ذات امتداد في الثقافة العربية والإسلامية، لاقتناعه بغنى تراثنا بالرموز الإنسانية والوطنية والدينية. هذا وقد احتلت حماية الروح عنده مكانة خاصة فيما كتب؛ حماية روحه أولاً من التلوث والسقوط، وحماية الشعب ثانياً من الجزع والاستسلام؛ فكان حريصاً في كتاباته على شدّ عزم الجماهير وحماية أرواحهم.

من هنا ارتبط شعر نصرالله ارتباطاً وثيقاً بالقضية الفلسطينية، وكان حريصاً على ابتداع رموزه ولغته وصوره في إطار موقف إنساني مبدئي لا يتوانى عن تحمل نتائجه.[23] ويلفت النظر أنه يكتب قصيدة يسميها "القصيدة- الجنين" أو "القصيدة-الطفل" ليعود في تجربة شعرية جديدة لاحقة ليستولدها من جديد، ويضخ فيها دماً جديداً لتغدو "القصيدة-الفتية"،[24] فلقد ابتدأ نصرالله كتاباته بالشعر لكنه لم يلبث إلى أن انتقل للرواية، ولعل إحساسه بالاغتراب كان من أحد الدوافع لهذا الانتقال. ومن أبرز القضايا التي دفعته للإحساس بالاغتراب- وهو ليس داخليا بقدر ما هو مكاني- تمثّل أولاً في اقتلاعه من جذوره الأصلية (فلسطين)، ثم في غربته بحثا عن وظيفة لا بد منها كمدرس في السعودية، ثم في تعرّض

---

[22] نبيه القاسم، "إبراهيم نصرالله في قصائده القصيرة مبدع يعرف كيف يُعيد للشعر حيويّته"، http://www.nabih-alkasem.com

[23] محمد عبد القادر، *فضاء التجاوز؛قراءات تطبيقية في إبداعات شعرية وروائية لإبراهيم نصرالله*، (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2012)، ص12،11 (بتصرف).

[24] محمد عبد القادر، *فضاء التجاوز*، ص12، 13 (بتصرف).

بعض أعماله للمنع والمصادرة في ظروف معينة كما ذكرنا سابقا؛ إذ وجد أن الشعر قاصر عن الإيفاء بمستلزمات التعبير عن هذه القضايا.[25]

مؤلفاته الشعرية:

- الخيول على مشارف المدينة (عام 1980م).
- نعمان يسترد لونه (عام 1984م).
- أناشيد الصباح (عام 1984م).
- الفتى والنهر والجنرال (عام 1987م).
- عواصف القلب (عام 1989م).
- حطب أخضر (عام 1991م).
- فضيحة الثعلب (عام 1993م).
- الأعمال الشعرية (مجلد) (عام 1994م).
- شرفات الخريف (عام 1996م).
- كتاب الموت والموتى (عام 1997م).
- بسم الأم والابن (عام 1999م).
- مرايا الملائكة (عام 2001م).
- حجرة الناي (عام 2007 م).
- طلقات الرحمة (عام 2008م).
- لو أنني كنت مايسترو (عام 2009م).
- عودة الياسمين إلى أهله سالما (عام 2011م).
- أحوال الجنرال (عام 2011م).
- على خيط نور (عام 2012م).
- الحب شرِّير (عام 2017م).

25 محمد عبيد، وسوسن البياتي، *الكون الروائي*، ص13.

رواياته:

كما ذكرنا من قبل أن نصرالله مثلما كان مبدعاً في الشعر، كان مبدعاً في الرواية أيضاً؛ فقد ولج عالم الرواية مسلحاً بالموهبة والمعرفة الإبداعية والنقدية، فهو شديد الاهتمام بالإبداع الروائي والعالمي، وهو فنان يتقن مهارات الرسم والتصوير. فغدت مسألة خوضه لعالم الرواية أمراً طبيعياً، خاصة وأنه بات في حكم المسلّمات أن الرواية عالم أكثر اتساعاً ورحابة من القصيدة.[26]

كتب إبراهيم نصرالله في مواضيع كثيرة وكلها مواضيع إنسانية راقية، ولكن يطغى موضوع القضية الفلسطينية على كل المواضيع، حيث كتبها بأسلوب جديد ومختلف في كل منها، متجاوزاً الرواية التقليدية إلى آفاق جديدة مع الحداثة، مما أكسب رواياته امتداداً وحضوراً لدى الجمهور، وترصداً لما يصدر له من جديد.

بدأ نصرالله كتابة الروايات المنفردة، مثل "برراي الحمى"، و"الأمواج البرية" وغيرها، لكنه صار يعمد إلى تأليف الروايات متسلسلة، فصدرت له سلسلتان: سلسلة "الملهاة الفلسطينية" التي تضم تسع روايات، و سلسلة "الشرفات" التي تضم ست روايات، وكل رواية من هذه الروايات مستقلة عن الأخرى.

كانت أولى رواياته رواية "برراي الحمى" -كما أسلفنا الذكر-، حيث كانت هذه الرواية نتاج المعاناة التي اصطدم بها في السعودية، اللغة والأسلوب جعلاها من الروايات الاستثنائية؛ حيث توالت طباعتها، وتم اختيارها كواحدة من أهم خمس روايات ترجمت للدنماركية، وكواحدة من أهم عشر روايات كتبت عن العالم العربي، ولم تكن هذه الرواية الوحيدة المحتفى بها، بل كانت أغلب رواياته تواجه هذا الاحتفاء، لذا نال كثيراً من الجوائز.

مؤلفاته الروائية:

- براري الحمى (عام 1985م)، ترجمت إلى: الإنجليزية، والإيطالية، والدنماركية.
- الأمواج البرية (عام 1988م).
- عو (عام 1990م).
- حارس المدينة الضائعة (عام 1998م).
- الشرفات شرفة الهذيان (عام 2005م)، ترجمت إلى الإنجليزية، شرفة رجل الثلج (عام 2009م)،.شرفة العار (عام 2010م)،.شرفة الهاوية (عام 2013م)،حرب الكلب الثانية (عام 2016م)، والتي فازت بالجائزة العالمية للرواية العربية لعام 2018.[27]

---

[26] محمد عبد القادر، *فضاء التجاوز*، ص13،(بتصرف).

[27] موقع الجائزة العالمية للرواية العربية، 24 نيسان 2018. https://www.arabicfiction.org/ar/winnerannouncement2018

- الملهاة الفلسطينية مجرد 2 فقط (عام 1992م)، ترجمت إلى: الإنجليزية، والإيطالية، والتركية، طيور الحذر (عام 1996م)، طفل الممحاة (عام 2000م)، زيتون الشوارع (عام 2002م)، أعراس آمنة (عام 2004م)، تحت شمس الضحى (عام 2004م)، زمن الخيول البيضاء (عام 2007م)، قناديل ملك الجليل (عام 2012م)،.أرواح كليمنجارو (عام 2015م).

وقد كشف الكاتب إبراهيم نصرالله إصداره ثلاثية روائية جديدة تنضم لسلسلة "الملهاة الفلسطينية"، في أبريل لعام 2019، وتضم روايات: دبابة تحت شجرة عيد الميلاد، نور العين، ظلال المفاتيح، وتأتى متزامنة مع مئوية وعد بلفور، التى تغطي الفترة من عام 1917، ودخول الإنجليز وتصاعُد الهجمة الصهيونية، إلى نهاية الانتفاضة الأولى.[28]

مؤلفاته الأخرى :

لم تقتصر كتابات إبراهيم نصرالله على الشعر والرواية بل كانت له مؤلفات في مجالات أخرى وهي:

*هزائم المنتصرين السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، (عام 2000م).

* الفن والفنان كتابات جبرا إبراهيم جبرا في الفن التشكيلي، (عام 2000م).

* ديواني شعر أحمد حلمي عبد الباقي، (عام 2002م).

* السيرة الطائرة أقل من عدو أكثر من صديق، (عام 2006م).

* صور الوجود السينما تتأمل، (عام 2008م).

*كتاب الكتابة تلك هي الحياة ذاك هو اللون، (عام 2018م).

الجوائز:

نظرا للتفوق الأدبي الذي أثبته نصر الله في الساحة الأدبية كان له نصيب من جوائز مختلفة وهي:

1. جائزة رابطة الكتاب الأردنيين (ثلاث مرات أفضل ديوان عن ثلاث من مجموعاته الشعرية).[29]
2. جائزة عرار للشعر، (عام 1991م).
3. جائزة تيسير سبول للرواية (عام 1994م).
4. جائزة سلطان العويس للشعر العربي (عام 1997م).
5. جائزة القدس للثقافة والإبداع (الدورة الأولى) (عام 2012م).
6. جائزة كتارا للرواية العربية (عام 2016م)، عن رواية "أرواح كليمنجارو".
7. جائزة البوكر (عام 2018م)، عن روايته "حرب الكلب الثانية".[30]

---

[28] جريدة اليوم، "الفائز بـ جائزة البوكر يكشف تفاصيل ثلاثية روائية تستكمل الملهاة الفلسطينية"، 13 حزيران 2018، https://www.youm7.com

[29] عبد الله بريمي، "إبراهيم نصرالله"، *موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني*، ج4، ص7.

الرسائل العلمية حول أعماله:

حظيت أعمال إبراهيم نصرالله باهتمام الدارسين والباحثين، فقاموا بعمل دراساتهم العليا حول تلك الأعمال، نختار منها:

1. رسالة دكتوراه بعنوان (البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله) مرشد أحمد، جامعة الزاوية، 2004م.
2. رسالة ماجستير بعنوان (التشكيل الجمإلى في شعر إبراهيم نصرالله) صالح حسن رجب، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم الدراسات الأدبية واللغوية ، القاهرة، 2005م.
3. رسالة ماجستير بعنوان (الحداثة في أعمال إبراهيم نصرالله الأدبية)،زهرة غياثيز، في جامعة تربيت مدري الإيرانية.
4. رسالة دكتوراه بعنوان (جدليّة التّوثيق والتّخييل في"الملهاة الفلسطينية" للروائي إبراهيم نصرالله)، آمنة سليم عمر جامعة بيروت العربية–كلية الآداب قسم اللغة العربية ، 2014.
5. رسالة دكتوراه بعنوان (تجليات المكان في شعر إبراهيم نصرالله) دلال عنبتاوي، جامعة اليرموك، الأردن، 2014.
6. رسالة دكتوراه بعنوان (الوصف في روايات إبراهيم نصرالله) نداء مشعل، الجامعة الإسلامية،الأردن 2014.
7. رسالة ماجستير بعنوان (الحيز الاستعماري وما بعد الاستعمار في روايتي دانيال ديروندا لجورج إليوت وزمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله) صابرين صالح، قسم اللغة الإنجليزية، الجامعة الأردنية، 2015.
8. رسالة دكتوراه بعنوان (تخيلات أدبية جديدة للمجتمع الفلسطيني في أعمال إبراهيم نصرالله)، نورا بار، جامعة سواس، لندن، 2015.
9. رسالة دكتوراه بعنوان (جماليات النقد الثقافي في روايات إبراهيم نصرالله)، آلاء الشمري، جامعة العلوم الاسلامية العالمية، عمّان الأردن، 2015.
10. رسالة ماجستير بعنوان (المثقف البيني في الحالة الفلسطينية)، فيروز شحرور، جامعة بير زيت، 2016.
11. رسالة ماجستير بعنوان (القضية الفلسطينية صراع بين الرواية و اللارواية في "زمن الخيول البيضاء" لإبراهيم نصرالله و حقيقة الدم لكرايل فيليبس)، أحلام المصري، الجامعة العربية المفتوحة، الأردن، 2016.
12. رسالة ماجستير بعنوان (الرواية التاريخية عند إبراهيم نصرالله زمن الخيول البيضاء وقناديل ملك الجليل نموذجا)، (دراسة تحليلية نقدية) إبراهيم علي أبو تحفة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، 2017.
13. رسالة ماجستير بعنوان (البنية الروائية في رواية أرواح كليمنجارو لإبراهيم نصرالله)، علا عزام كمال أبو بيح، جامعة النجاح الوطنية، 2017.
14. رسالة ماجستير بعنوان (بنية الخطاب الروائي عند إبراهيم نصرالله رواية زمن الخيول البيضاء أنموذجا)، بوطيبة ربيحة، جامعة زيان عاشور، الجزائر، 2017.

---

[30] "رواية "حرب الكلب الثانية" لإبراهيم نصرالله تفوز بجائزة البوكر"، تاريخ 24 نيسان 2018، https://www.arab48.com

الكتب حول أعماله:

مثلما نالت أعمال نصرالله اهتمام الباحثين والدارسين، كذلك نالت اهتمام الكتّاب والأدباء، فألّفوا كتباً حولها، منها:

1. شعرية طائر الضوء جماليات التشكيل والتعبير في قصائد إبراهيم نصرالله، الدكتور محمد صابر عبيد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2004م.
2. البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله، الدكتور مرشد أحمد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005م.
3. الكون الروائي . قراءة في الملحمة الروائية (الملهاة الفلسطينية) د. محمد صابر عبيد، د. سوسن البياتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت، 2006م.
4. عين ثالثة، تداخل الفنون والأجناس في أعمال إبراهيم نصرالله الإبداعية. حسين نشوان، منشورات وزارة الثقافة الأردن، 2007م.
5. سحر النص من أفق السرد إلى أجنحة الشعر، قراءات في المدوّنة الإبداعية لإبراهيم نصرالله مجموعة باحثين، منشورات الدائرة الثقافية، أمانة عمان والمؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، 2007م.
6. فضاء التجاوز قراءات تطبيقية في إبداعات شعرية وروائية لإبراهيم نصرالله، الدكتور محمد عبد القادر، دار الشروق، عمان، 2012م.
7. رواية ما بعد الحداثة قراءة في شرفات إبراهيم نصرالله، محمد عبيد، سوسن البياتي. منشورات دار ضفاف، بيروت، مكتبة كل شيء، فلسطين، الأمان، المغرب، 2013م.
8. إبراهيم نصرالله ورواياته عن فلسطين، أحمد بستانجي، نون للنشر، اسطنبول، 2013م.
9. تصميم وتطور الشخصيات المحورية في الرواية العربية الأديب إبراهيم نصرالله نموذجا، خالد أحمد كبها، دار الهدى للطباعة والنشر، 2017م.

المبحث الثاني: جدلية مفهوم "الملهاة الفلسطينية" وتجلياته

من المعتاد عند توضيح مفهوم جديد الرجوع إلى المعنى اللغوي له؛فالمعنى اللغوي لـ (الملهاة) نجد أنه يرجع إلى: لها بالشيء لهوا: أولع به، لها لهيانا عن: إذا سلوت عنه وتركت ذكره وإذا غفلت عنه، ولهت المرأة إلى حديث المرأة: أنست به وأعجبها. قال تعالى: (لاهيةً قلوبُهم) (الأنبياء:3)، أي: متشاغلة عما يدعون إليه. وقال تعالى: (وأنت عنه تلهى) (عبس:10) أي: تتشاغل. وتلاهَوْا، أي: لهى بعضهم ببعض، ولهوَت به: أحببته. والإنسان اللاهي إلى الشيء: الذي لا يفارقه. ولاهى الشيء أي: داناه وقاربه. ولاهى الغلام الفطام: إذا دنا منه. واللهوة واللهية: العطية، وقيل: أفضل العطايا وأجزلها.[31]

أما المعنى الاصطلاحي "للملهاة" هو: نوع من أنواع الفن المسرحي، تقابلها كلمة المأساة، فكلمة الملهاة تقابل الكوميديا، وكلمة مأساة تقابل التراجيديا.[32] والملهاة سلسلة من أحداث مضحكة لغرابتها أو سخفها، ويقصد بها أن تقدم إمتاعاً وتسرية.[33]

وقد كانت الملهاة تتميز بتناولها الشخصيات غير المهمة، واهتمامها بشؤون الحياة العامة، وعلى العكس من ذلك المأساة، فهي تتناول الشخصيات العظيمة. بدأت بالآلهة عند الإغريق، ثم بأبطال من البشر هم في الحقيقة أنصاف آلهة، ثم صار الإنسان هو البطل، وبخاصة في عصر النهضة، حين كان يُظن أن الإنسان مركز العالم ولكنه ظل الإنسان الممتاز، كشخصيات الملوك والأمراء. حتى إذا ما تزعزعت تلك العقيدة ذهبت معها فكرة البطولة، ولم تعد البطولة تستخدم إلا لتدل على الشخصية الرئيسية في المسرحية، كما تتناول الموضوعات العالمية البالغة الأهمية. أما في العصور الحديثة فيقوم التفريق بين الملهاة والمأساة على أساس من فكرة "النهاية السعيدة" ففي الملهاة تتحقق النهاية السعيدة، أما النهاية المميزة للمأساة فهي هزيمة البطل أو موته في العادة.

وهناك الملهاة الباكية وهي مزيج من المأساة والملهاة، وهي نوع مسرحي ازدهر خلال السنين الأولى من القرن السابع عشر. وهي في أوج ازدهارها قد انقسمت إلى نوعين عامّين: أما النوع الأول فقد كانت فيه القصة جادة، وهي تتحرك نحو نهاية مأساوية، حتى إذا كان المشهد أو المشهدان الأخيران من المسرحية إذا بالحوادث تنتهي إلى نهاية سعيدة أو كوميدية. أما النوع الثاني فيتمثل في المسرحية التي يمتزج العنصران التراجيدي والكوميدي خلالها، فالحادثة الرئيسية جادة ولها إمكانات مأساوية برغم أنها تنتهي نهاية سعيدة، وكذلك تتضمن أشد المشاهد جدية عناصر كوميدية تتعارض أحيانًا تعارضًا حادًّا مع النغمة الحزينة الرئيسية. وينبغي الانتباه إلى أن العناصر الكوميدية في "الملهاة الباكية" أجزاء أساسية من

---

[31] جمال الدين ابن منظور الأنصاري، *لسان العرب*، (بيروت،دار صادر، 1414هـ)، ج15، ص 258-262.

[32] عز الدين اسماعيل، *الأدب وفنونه*، (القاهرة، دار الفكر العربي، 2013م)، ص138.

[33] إبراهيم فتحي، *معجم المصطلحات الأدبية*، (تونس، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، 1986)، ص347.

المسرحية، فهي تختلف عن المواقف الكوميدية التي تستخدم أحيانًا في المأساة للتخفيف من وقعها حتى لا يضجر المتفرج.[34]

وبعد استعراضنا لمفهوم الملهاة لغة واصطلاحا، نثير السؤال المنطقي: لم أطلق إبراهيم نصرالله على مشروعه اسم الملهاة، وليس المأساة؟ هل كانت فكرة الملهاة الفلسطينية منطلقة من هذا المعنى؟ وإذا افترضنا ذلك؛ فالملهاة وفقاً للمعنى المتقدم يجب أن تكون نهايتها سعيدة، فهل كانت نهاية روايات سلسلة الملهاة سعيدة؟ هل يعقل أن تكون النهاية سعيدة لروايات تثير القضية الفلسطينية والتي رأينا في نهاية كل منها نهاية حزينة ومأساوية؟ وكيف تكون لهذه الروايات نهاية والقضية التي تعالجها لم تنته؟ هل استعار نصرالله لفظ الملهاة وأراد منه الضد وهو المأساة؟ أم أن نصرالله يستشرف المستقبل لهذه القضية والتي تبدو نهايتها حزينة، لكنها ليست سوى مراحل كبوة في القضية الفلسطينية، وأن النهاية السعيدة قادمة والتي وعدها الله للمسلمين بتحرير فلسطين؟ أم أن هذه القضية استُغلت لتكون ملهاة ومشغلة للشعوب عن أمور أخرى؟
لذا سنتطرق أولا إلى بعض أبرز النقاد الذين كتبوا حول مسمّى الملهاة وآرائهم، ثم نجيب عن هذه الأسئلة.

كان للنقاد بعد أن قرؤوا الملهاة تفسيراتهم الخاصة حول تسمية نصر الله لسلسلة رواياته بالملهاة، نعرض منها:

د.محمد صابر عبيد، ود. البياتي: يريان أن المضمون الروائي يشير إلى عمق المأساة التي تكتنف الإنسان العربي على إثر الهزائم التي مُني وما زال يمنى بها، وصراعه الدائم مع الآخر. وهنا تكمن المفارقة في استخدام مفهوم مغاير لمضمونه، ربما أراد نصرالله برواياته أن تحمل في طياتها جانبا من السخرية والاستهزاء من الواقع الذي تعيشه الشخصيات أولاً، ومن انكسار الحلم العربي ثانياً، لذلك جاءت الملهاة لتفسر هذا التناقض الحاد في الأفعال والسلوك و المفاهيم التي طغت على الساحة العربية، إذ وجد مفهوم المأساة عاجزاً عن التعبير عما يريده لأنه مغلق بالهزيمة.[35]

الدكتور محمد عبدالقادر: حاول توضيح معنى الملهاة بتسليط الضوء على العلاقة بين التراجيديا والكوميديا، ومما خلُص له أن الحدود الفاصلة بينهما لا يمكن تحديدها بدقة لتداخل الأساليب وتلاقي الأنواع في العمل الواحد؛ وهذه العلاقة هي التي تشكل أسساً فنية لوصف هذا العمل بالملهاة أو بالمأساة لا فرق؛ ذلك أنهما يلتحمان ليشكلا وجهين لعمل واحد، إذ إن القضية الفلسطينية بالذات، بقدر ما تنطوي على تراجيديات لا حدّ لها، فإنها أيضاً تحتوي على أشكال لا حصر لها من السخرية والكوميديا والكوميديا السوداء. وإن ظلال كلمة الملهاة تفيد معنى أن الزعامات العربية

---

34 عز الدين إسماعيل، *الأدب وفنونه*، ص138،139.
35 محمد عبيد وسوسن البياتي، *الكون الروائي*، ص22.

قد (لهوا) بالقضية و(تشاغلوا أو انشغلوا) عنها بعد أن حصلوا على أطماعهم، وفي النهاية قدموها (لهو أو لهية) أي عطية للاحتلال. وهو لا يتفق مع نصرالله باستغلاقه للتراجيديا وحتميتها واستبعادها عن الملهاة.[36]

د. رفقة محمد دودين: تقول إن لسان العرب الذي استند إليه نصرالله لم يتطرق للملهاة بمعناها المحدث، وإن ما احتوته الرواية من فصول هي مأساوية فأين الملهاة فيها؟ وهو ما يدفعنا إلى التبصر بالاجتهاد، ونظراً لارتباط الرواية بالملحمية والغنائية، فهي تخرج من توافق ثنائية التراجيديا والكوميديا؛ ثنائية الهجاء والمديح التي تندرج تحتها أنواع الإبداع كلها.[37]

د.جميل السلحوت: القول المأثور بأن "التاريخ يعيد نفسه مرتين، مرة على شكل مأساة ومرة على شكل ملهاة". فلماذا أسقط الكاتب المأساة، وقبض على جمرة الملهاة؟ وكأنه يهرب من المأساة بما تحمله من تراجيديا تنتهي بموت البطل، إلى الملهاة التي يريد أن لا تنتهي قبل أن يعود الحق إلى أصحابه.[38]

كوليت مرشليان: فترى أن نصرالله اتخذ هذا الاسم لأنها تستوعب المأساة داخلها وتعلن بالتالي استمرارية الحياة، وهو لم يهدف إلى تدوين مأساة ما يحلّ ببلده فلسطين من باب التأريخ، بل من رغبة في إطلاق المأساة من رمادها لتشتعل في ذاكرة الحاضر والمستقبل وتبقى "الملهاة" مستمرة على مسرح الحياة، كمثل فعل الشهادة والدماء التي تروي الأرض وتعود لتزهر في الحقول والبساتين زهوراً وطيباً.[39]

نلاحظ بعد استعراضنا لتلك الآراء أن أكثرهم متفقون على أن مفهوم الملهاة والمأساة بمعناهما العميق وجهان لشيء واحد، وهو أمر قصده نصرالله.لكنه رجّح تسمية الملهاة كما أشرنا.ويمكننا إضافة أمر آخر وهو: أن الملهاة وهي القضية الفلسطينية قد استغلها المتحكمون في الصراعات بين الدول لتكون ملهاة ومشغلة للشعوب عن القضايا والمكائد الأخرى التي يكيدونها لهذه الشعوب، وكذلك استغلها الذين يوهمون الآخرين بدافعهم عنها لتحقيق مآربهم من خلالها، فلا يستطيع أحد محاسبتهم وهم الشرفاء الذين يدافعون عن قضية سامية، فهؤلاء وهؤلاء يضحكون ويسخرون من سذاجة هذه الشعوب التي لم تستفق من لهوها وملهاتها. ولعلنا من هذا المنطلق نرى مثيلةً للملهاة الفلسطينية ظهرت على الساحة السياسية جديداً وهي الملهاة السورية إن أجيز لنا تسميتها بذلك!

---

[36] محمد عبد القادر، *فضاء التجاوز*، ص169- 173(بتصرف).

[37] جريدة الرأي، "يوتوبيا الفردوس المفقود، قراءة في ملهاة زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله"، 29 شباط 2008، http://alrai.com

[38] جميل السلحوت، " الملهاة الفلسطينية " زمن الخيول البيضاء " ملحمة النكبة"، 05 تشرين أول 2008، http://www.m.ahewar.org/s.as

[39] كوليت مرشليان، "رواية زمن الخيول البيضاء لإبراهيم نصرالله الملهاة الفلسطينية بتراجيديتها التاريخية"، 27 آذار 2009، https://almustaqbal.com/article/336911

المبحث الثالث: نظرة داخل "الملهاة الفلسطينية"

كانت القضية الفلسطينية الشغل الشاغل في مواضيع أعمال نصرالله بشتى أشكاله من رواية وشعر وتصوير ورسم، ولأن الدفاع عنها بسلاح القلم رسالته في هذه الحياة –فالكتابة عنده مسألة وجودية كما أسلفنا ذكره– فقد خصص لها سلسلة من الروايات تتناولها من جوانب عدة؛ مما أكسبها مكانة متميزة في الساحة الأدبية، اشتغل نصرالله على مشروعه هذا سنوات طويلة وما زال منشغلا به، فمنذ إطلاقه الرواية الأولى من السلسلة وهي رواية "طيور الحذر" عام 1996، ما زال يطل علينا بروايات جديدة سبق ذكرها في التمهيد، بعد أن كان يظن أن آخر رواية من هذه السلسلة هي "زمن الخيول البيضاء" الرواية التي ندرسها الآن، فالأمور لا تسير حسب رغباتنا كما يقول.

وباعتقادنا أن هذا الأمر طبيعي لمن كرّس نفسه لخدمة هذه القضية وحمايتها في الذاكرة (الماضي والمستقبل)، فالأفكار تتجدد كل يوم وتزدحم بها عقولنا، لذا كتابتها في رواية يخدمنا ويخدمها. فجاءت روايات هذه السلسلة لتخبرنا عن فلسطين وما حدث بها منذ الوجود العثماني حتى يومنا الحاضر.

روايات سلسة "الملهاة الفلسطينية" مرتبة حسب التسلسل الزمني:

قمنا في المبحث السابق بترتيب روايات السلسلة بحسب تاريخ نشرها، لكننا هنا نرتبها بحسب تسلسل الزمن الحقيقي (زمن الحكاية) الذي ورد في كل منها، وهي كالآتي:

1. قناديل ملك الجليل: وتتناول حكاية ظاهر العمر الذي عاش في القرن الثامن عشر أثناء الحكم العثماني.
2. "زمن الخيول البيضاء": وفيها واصل نصرالله الحديث عن فلسطين في أواخر الحكم العثماني، ثم الاستعمار البريطاني ووقوعها تحت الاحتلال الصهيوني (النكبة).
3. طفل المحاة: تتحدث عن حياة طفل فلسطيني عاش في عشرينيات القرن الماضي حتى وقوع النكبة.
4. طيور الحذر: هنا يأخذنا نصرالله مع اللاجئ الذي هجّر من أرضه بعد النكبة ويمتد بنا في الزمن حتى النكسة.
5. زيتون الشوارع: في هذه الرواية أيضا يصحبنا نصرالله مع اللاجئ لكنه هنا امرأة –أو بالأحرى ثلاث نساء–، ودفاعها ضد الاعتداء على جسدها، في زمن ما قبل النكبة حتى تسعينيات القرن الماضي.
6. أعراس آمنة: يرجع بنا نصرالله إلى فلسطين لكن في مدينة اللجوء (غزة)، وكيف عاش الفلسطينيون فيها في زمن الاحتلال.
7. تحت شمس الضحى: حكاية مسرحي عاش في (رام الله) بعد اتفاق أوسلو بين الاحتلال ومنظمة التحرير، ومعاناته في ظل هذا الحكم.
8. مجرد 2 فقط: أحاديث بين اثنين في آخر الليل ينقلان شهادتهما على العصر عن حياة اللاجئ في المخيم ومذبحة تل الزعتر. ضمّها نصرالله للسلسلة مؤخراً.

9. أرواح كليمنجارو: حكاية إصرار أطفال فلسطينين بترت سيقانهم جراء الاعتداء الصهيوني عليهم، اصطحبهم نصرالله في تسلق جبل كليمنجاروا للوصول إلى قمته.

تسلسل إبراهيم نصرالله –من خلال هذه الروايات– في تناول القضية الفلسطينية في أزمان مختلفة، ملقياً الضوء في كل منها على حكايا ورموز جديدة، يكشف لنا من خلالها حياة الفلسطيني في كل جوانب حياته وعلاقاته مع ما حوله من ثنائيات؛ حياة وموت، حب وكره، عدل وظلم، وغيرها. مثيراً مجموعة أسئلة ذات مغزى روائي، المقصد منها الكشف عن روابط سردية تتشكل في المتن الروائي. منها: سؤال الوطن، سؤال الحب، سؤال الموت، سؤال الجنس، سؤال الغربة وهذه الأسئلة تتضافر فيما بينها لتخرج لنا المشهد الروائي الذي يقصده نصرالله[40]. فنجد فيها قصص البطولة ومقاومة العدو في سبيل الوطن، وقصص الحب والزواج والشهادة والموت والولادة والسفر الوفاء والخيانة... تمدّ القارئ بمخزون ثقافي واسع عن القضية الفلسطينية، وبذلك يكون قد تحقق مشروع نصرالله الذي اتخذه سلاح مقاومة للاحتلال.

لقد اصطحبنا نصرالله مع أبطال رواياته في رحلة من القرن الثامن عشر حتى قرننا الحالي، أي حوالي قرنين ونصف من تاريخ فلسطين، أطلعنا بها على تفاصيل معاناة الشعب الفلسطيني عبر تلك القرون، وجهادهم في سبيل إرجاع حقهم. وما زال نصرالله مستمرا في مشروعه لحفظ الذاكرة.

[40] محمد عبيد وسوسن البياتي،*الكون الروائي*، ص102.

المبحث الرابع: نبذة عن "زمن الخيول البيضاء"

سنتناول في هذا المبحث رواية "زمن الخيول البيضاء" من عدة جوانب؛حيث سنقوم بتوصيفها، وتلخيصها، وذكر بعض أقوال الأدباء والنّقاد عنها:

توصيف الرواية

رواية "زمن الخيول البيضاء" إحدى روايات "سلسلة الملهاة الفلسطينية"، تعدّ رواية تاريخية، وهي الرواية السادسة من حيث الإصدار –حيث صدرت متزامنة مع الذكرى الستين لاحتلال فلسطين– نشرت الطبعة الأولى منها عام 2007م، وهي الرواية الثانية من حيث التسلسل التاريخي. كُتبت في (511) صفحة من القطع المتوسط.

أشاد كثير من الكتّاب والنقاد بها لدرجة وصفها "بالإلياذة الفلسطينية"، نالت مكانة عالية في الساحة الأدبية حتى دخلت "القائمة القصيرة لجائزة البوكر".
وبالرغم من وجود روايات عديدة تناولت القضية الفلسطينية كرواية "بير الشوم" لفيصل حوراني، ورواية "باب الشمس" للروائي اللبناني إلياس خوري وغيرها، والتي قد أشاد الكتّاب بقيمتها الإبداعية،[41] إلا أن "زمن الخيول البيضاء" قد تفوقت عليها بفنيتها وبالمراحل التي غطتها. حيث تناولت التاريخ الفلسطيني قبل النكبة 1948، حيث لم يكن نصرالله نفسه يعرف ما حدث لشعبنا الفلسطيني في هذا الزمن.[42]

اختار نصرالله عنوان "زمن الخيول البيضاء" لأنه الأكثر ملاءمة لمضمون الرواية؛ فهو يعبر عن البشر في الرواية وعن الخيول التي اعتبرها شخصيات أساسية.[43] وأما غلاف الرواية فكان من تصميم الفنان محمد نصرالله، ورسمُ رأس الخيل للفنان البحريني الراحل أحمد الباقر.[44] وفي الصفحة الثالثة وتحت اسم الرواية، استهلّ نصرالله روايته بقول: "لقد خلق الله الحصان من الريح.. والإنسان من التراب.(قول عربي)... والبيوت من البشر (إضافة)!" وهذه إشارة تصدير لأسماء الكتب الثلاثة (الريح، التراب، الإنسان) التي تضمها الرواية.

كتب نصرالله بعض الملاحظات في الصفحة الخامسة، ذكر من خلالها بداية كتابته للرواية، وجمع معلوماتها من خلال المقابلات الشخصية والتسجيلات الشفوية ، كما أهدى عمله لمن زودوه بشهادتهم، نورد منها:

---

[41] جميل السلحوت، "الملهاة الفلسطينية " زمن الخيول البيضاء " ملحمة النكبة":05 تشرين أول 2008، http://www.m.ahewar.org/s.as

[42] إبراهيم نصرالله، مقابلة شخصية، عمان، الأردن، 29 آب 2014.

[43] إبراهيم نصرالله، مقابلة شخصية، عمان، الأردن، 29 آب 2014.

[44] من المعروف أن هذا الفنان من المهتمين بالخيل العربي ورسمه وله كتاب" الخيل العربية النجيبة في مملكة البحرين".

- بدأ نصرالله في روايته عام 1985 ظانّا أن هذه الرواية هي (الملهاة الفلسطينية)، ولكن العمل الطويل عليها جعلها سلسلة روايات، صارت "زمن الخيول البيضاء" الأخيرة منها.
- جمع الشهادات الشفوية الطويلة بين عامي 1985و 1986.
- نبّه إلى أن حكاية الدير مع قرية (الهادية) حكاية حقيقية من أولها إلى آخرها، وهي حكاية قريته.
- أهدى نصرالله هذه الرواية إلى أرواح الشهود الذين أمدّوه بالمادة الشفوية للرواية (عمه: جمعة خليل، جمعة صلاح، مرثا خضر، كوكب ياسين طوطح)، والذين رحلوا غرباء قبل أن تتحقق أمنيتهم الكبرى بالعودة إلى وطنهم. وهو في صفحة 510 يذكر الشهود والمصادر جميعها.

من خلال هذه الملاحظات يخبرنا نصرالله أن هذا العمل لم يكن عمل فرديا، بل شاركه في إنجازه أشخاص يستحقون الشكر والذكر في روايته. وأن إنجاز أي عمل قد يأخذ سنين ليصبح جاهزا.

وبعد أن أنهى نصرالله روايته مباشرة ــوفي الصفحة المقابلةــ أفرد قولاً لديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء للكيان الصهيوني في فلسطين يقول فيه: "لو كنت قائدا عربيا، لما وافقت على أي اتفاق مع إسرائيل، فهذا أمر طبيعي، فنحن أخذنا بلادهم. نعم، إن الله وعدنا بهذه الأرض، ولكن هذا أمر لا يهمهم... فإلهنا ليس إلههم... وهذا حصل منذ ألفي عام...أننا جئنا وسرقنا بلادهم، فلماذا عليهم أن يقبلوا بهذا؟". لم يكن إدراج نصرالله لهذا القول عبثاً، فهو يريد أن يقول لنا هذه شهادة صريحة –من أحدهم وليس أي أحد بل رئيسهم– أن كيانهم هذا جديد لم يكن موجوداً من قبل، وأنهم قتلوا وطردوا أهلها الأصليين، فهو بذلك يدحض مقولة: "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" والتي يحتج بها الصهاينة. وهو كذلك يلوم الحكام العرب الذين تخلوا عن فلسطين وصافحت أيديهم المغتصِب، ومن لامست يده ذلك المغتصِب فهو مغتصِب مثله وقد تلطخت أيديهم بدماء الشهداء والمستضعفين في فلسطين، وأنهم السبب في تشتت هذا الشعب ومعاناته أينما حلّ.

ليس من عادة الكتّاب وضع فهرس للرواية، لكن نصرالله وضعه في كثير من رواياته. وبيّن في الصفحة 509 ما كتُب في لسان العرب عن أصل كلمة الملهاة وقد كرر هذا الأمر في جميع روايات السلسلة.

ومما يجدر الإشارة إليه، أن رواية "زمن الخيول البيضاء" قد كتبها نصرالله مرة أخرى بشكل سيناريو لتقدم كمسلسل تلفزيوني، لكن كما قال نصرالله نفسه : "لكننا اكتشفنا أن لا أحد يريد فلسطين في الفضائيات العربية، الأنظمة العربية كلها تجامل إسرائيل ولا تريد أي أعمال تعكر صفو العلاقات معها"![45]

[45] إبراهيم نصرالله، مقابلة شخصية، عمان ، الأردن، 2014/08/29

ملخص الرواية

جاءت صفحات الرواية مقسمة على ثلاثة كتب: الريح(7-182)، التراب (183- 390)، الإنسان (391-506). وهي تمثل بتقسيمها هذا الأزمان (أواخر الحكم العثماني، الاستعمار البريطاني، الاحتلال الصهيوني حتى النكبة 1948).

كانت الانطلاقة في روايتنا بوصول الحمامة (فرس) -رمز فلسطين- إلى قرية (الهادية) حيث أبهرت الجميع بنصاع بياضها وكذلك أبهرت خالد بطل قصتنا ابن الحاج محمود مختار القرية، وبدأ تعلقه بها. كان أهل القرية يعيشون بسلام يفلحون أرضهم ويدفعون العشر للدولة العلية عن طريق الدير الذي تولى رهبانه مسؤولية إيصال الضرائب للحكومة، وقد كان الفلاح طيبا يثق بهم، فلم يكن يسجل أرضه في كوشان -كان هذا أحد أسباب ضياع أرض فلسطين-، فالأرض قد ورثها عن أجداده فهي ملكه ولا يحتاج لورقة تثبت ذلك. وكانوا في المساء يجتمعون بمضافة الحاج محمود يرتشفون القهوة على أنغام مهباش حمدان، يفرحون معا ويحملون الحزن معا، لكن الأمر تغير بعد أن أصبحت الإمبراطورية تتأرجح وبدت مستعدة لأن تفعل أي شيء مقابل الحصول على المال والرجال المجندين، فزادت الضرائب وعمّ الظلم وأصبح كثير من أهل القرية مطلوبين -كان خالد أحدهم-، وبسبب ذلك فُسخت خطوبته عن ياسمين التي علّل والدها أن عمر الدول أطول من عمر الناس، ومنهم من قُتل ومنهم من هاجر هربا، لكن في هذه الفترة كانت الريح تحمل في تنقلاتها نذيرا لأمر عظيم سيحلّ على الهادية، خلال هذه الفترة يظهر الهبّاب عيْن القائمقام الذي وضعها في القرية، وهو رمز الفساد والشر. ثم ينتقل بنا المطاف في كتاب التراب إلى المستعمِر (المحتَل) البريطاني الذي كان أشد عليهم من العثمانيين جاءهم كالجراد الذي لا يترك خلفه شيئا، فأنهكوا الناس بالضرائب واستولوا على أرضِ من لم يدفع لهم، ومثلما كان خالد فراريا في زمن الأتراك أصبح مطلوبا للإنجليز ومؤرقا لهم بعدما أصبح قائدا للثوار، فالظلم أينما كان يكون الدفاع فكان يقاتل كي لا يضيع حقه وحق بلده، لكن نهاية الشرفاء غالبا ما تكون بالوشاية، وهكذا ظل الإنجليز يعوثون فسادا في البلاد حتى سلموها لليهود الذين كانوا أشد من سابقيهم، فقد كانوا يتّبعون تنظيما ممنهجا لسرقة البلاد، فعاثوا بها قتلا وتهجيرا حتى استطاعوا احتلالها بمساعدة الخونة والقوى المتآمرة وطيبة أهلها الزائدة عن حدها.

آراء النقّاد والأدباء في الرواية:

جاءت رواية "زمن الخيول البيضاء" لتحكي لنا أحداثا من تاريخ فلسطين بفنية رائعة، جعلت كل من يقرأها يحتفي بها، وهنا نورد بعض الآراء فيها:

د.**سلمى الجيوسي** ود.**أحمد حرب**: يريان أنها الإلياذة الفلسطينية التي كان الجميع ينتظرها، والتي تصوّر الملحمة الفلسطينية عبر فنّها الرفيع.

د.**فيصل درّاج**: هي الرواية الأكثر تماسكاً وتكاملاً التي تأمّلت المأساة الفلسطينية من نهايات القرن التاسع عشر إلى عام النكبة، دافعة بالرواية الفلسطينية إلى آفاق جديدة.

أحمد الحربان: لم يتأثر بقصة عن فلسطين كتأثره برواية "زمن الخيول البيضاء"،ويرى بضرورة ترجمة هذه الرواية ونشرها عالميا.

فاروق وادي: قرية "الهادية" اختزال مكثّف لفلسطين، وجاءت لحظة النهاية لترسم بدقّة مأساة وملهاة ذلك السقوط الكبير المريع.

د. **راوية بربارة**: عمل ملحمي يُقرأ بالحواس الخمس، يعيد اعتباراتِكَ لرؤيةِ الأشياء في هذا العالم، وخيالٍ قصصيٍّ يرقى بالنّصّ إلى المستوى الإنساني، فيغرقُ في المحليّةِ وشؤونها وتاريخِها فاتحًا الباب إلى العالميّةِ.

سعيد المسكري: الذي قرر أن يبقى محجما عن قراءة أي جديد لا يرقى إلى مستوى هذه الرواية.

د. **محمد عبد القادر**: الأوسع مدى، والأعمق رؤية، والأنضج فناً في كتابة الملحمة الروائية الفلسطينية. سيصاب القارئ بدهشة شديدة حيال المدى الذي أوغل فيه نصرالله في دراسته للمرحلة وبحثه المستفيض في كل ما يمت لها بصلة، مثلما سيُدهش للخيال الذي أنتج هذه الملحمة الروائية.

نقول بعد تلك الأقوال: أننا لا نرى أي مبالغة في تلك الآراء، فالرواية تستحق كل هذا الثناء والاحتفاء، خاصة عندما تصدر مثل هذه الآراء عن متخصصين في صناعة الأدب والنقد، فلا يسعنا إلاّ الإجلال والإشادة بآرائهم التي أعطت المكانة الحق لهذه الرواية العظيمة ولكاتبها المبدع إبراهيم نصرالله.

الفصل الثاني: التحليل الأدبي للرواية

نستهل تحليل الرواية بتحليل عنوانها "زمن الخيول البيضاء"، فالعنوان هو البذرة التي نبتت منها معظم دلالات النص، أو هو "بنية رحميّة تولِّد معظم دلالات النص" كما يقول الدكتور جميل حمداوي.[46] فعنوان الرواية الذي بين أيدينا عبارة عن جملة اسمية مكوّنة من ثلاثة عناصر معجمية، جاء العنصر الأول والثاني على شكل تركيب إضافي (زمن الخيول) فأضيفت فيه نكرة إلى معرفة، وهي إضافة محضة (معنوية) تفيد التخصيص أو التعريف؛ أي خصص هذا الزمن للخيول أو عرّف الزمن بأنه للخيول، فـ (زمن) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هذا زمن)، فزمن مضاف والخيول مضاف إليه، أما العنصر الثالث (البيضاء) صفة للخيول، وفي العنوان انزياح بالحذف.

نعود لنتفحص معنى العنوان؛ فـ (زمن) مفرد وجمعها (أَزْمانٌ وأَزْمِنَةٌ وأَزْمُنٌ): وهو اسم لقليل الوقت وكثيره.
و(الخيول): جمع لاسم الجمع خيل، فتضم الذكر والأنثى منه.
و(البيضاء): مؤنث الأبيض، لون الصفاء والنقاء، وضده الأسود.

فإذا نظرنا لعنوان الراوية فنجد أنه يخبرنا عن زمن كانت فيه الخيل مثل الإنسان، فكانت حرّة لا تُهان ولا تُغتصب، كانت الحبيبة والرفيقة، ومثالا للحرية والشهامة والأصالة، لدرجة أنه زمن كان يُعرف بها، وكانت هذه الخيول بيضاء، فاللون الأبيض يدل على الطهر والنقاء والإشراق، وهو رمز للسلام والانفتاح وحب الآخرين. هكذا كان الزمن الذي يخبرنا عنه عنوان الرواية؛ زمن كان يعيش فيه الفلسطيني بسلام لا يسعى لحرب، زمن الحرية والبساطة. كما أن كلمة (زمن) تفيد التأقيت؛ أي أن هذا الزمن الذي تعيش فيه هذه الخيول البيضاء لا يستمر طويلا، سيكون مؤقتا ليأتي بعده زمن تسودّ فيه هذه الخيول؛ من جَراء الحروب والقتل والخيانة.

---

[46] محمد أبو الفتوح العفيفي، *في تحليل النص الأدبي*، (القاهرة: دار الحسين للطباعة والنشر)، ص20.

المبحث الأول: الشخصية

تعدّ الشخصية إحدى المكونات الحكائية التي تشكل بنية النص الروائي، وهي مكون سردي لا يعرف الثبات، متغير من عمل إلى آخر.[47] وهنا يكمن الفرق بين الإنسان في الروايات والإنسان العادي؛ فالإنسان في الروايات أكثر مراوغة، وهو مخلوق في مخيلة مئات من الروائيين الذين تتباين طرق تفكيرهم.[48] فالروايات تخلق جنساً بشرياً يمكننا أن نفهمه، وهو ما يوهمنا نحن القراء بالفطنة والقوة.[49] ويستخدم الكاتب واحدة أو أكثر من الوسائل الرئيسية للتشخيص، فالشخصية تتكشّف: بأفعالها،بكلامها، بأفكارها، بمظهرها الجسدي، وبما تقوله الشخصيات الأخرى عنها.[50] لم تكن الشخصية عنصرا مستقلا من عناصر الرواية حتى الثورة البرجوازية في القرن التاسع عشر وارتفاع قيمة الفرد خلالها، حيث كان لها الأثر في إبراز الشخصية واستقلالها عن الحدث.[51]

شخصيات الرواية

يؤكد الكاتب في ملاحظاته في مقدمة رواية "زمن الخيول البيضاء" أن "أسماء الشخصيات والعائلات غير حقيقية، وإذا ورد تشابه بينها وبين شخصيات حقيقية، فذلك بمحض الصدفة، لكن لماذا يحيل نصرالله ورود الأسماء الحقيقة للصدفة؟ ونحن نعرف أنه من الطبيعي ورود تلك الأسماء في رواية تاريخية. وهذا أمر مشهور في أوساط الروائيين هدفه إبعاد التهم عن أنفسهم وعدم تعرضهم لأي مُساءلة قانونية أو سياسية بسبب تلك الأسماء.

معظم الشخصيات تكوّنت في الكتاب الأول للرواية وهي شخصيات خيالية، فكانت أكثر الأحداث خيالية، ولكن تراوحت الشخصيات والأحداث في الكتابين الثاني والثالث بين الخيالية والواقع، فوردت كثير من الأسماء ذات الأصل التاريخي، ويرجع ذلك إلى المصادر التي استقى منها نصرالله مادته التاريخية حيث كانت أوفر في القسمين الآخرين، كما أن توظيفه لأسماء تلك الشخصيات فيه خدمة لمشروعه في حفظ ذاكرة وتاريخ فلسطين.

أما شخصية نصرالله لم تظهر في الرواية كإحدى شخصياتها، كما اعتاد هو بتجسيد نفسه بإحدى شخصيات رواياته، وبرأيه أن الكاتب موجود في كل عمل يكتبه، وليس بالضرورة أن يوجد كشخصية لأن هذا العمل هو أفكاره.[52]

---

[47] ا. م. فورستر، *أركان القصة*، ترجمة: كمال جاد، (القاهرة: دار الكرنك، 1960م)، ص60.

[48] ا. م. فورستر، *أركان القصة*، ص69.

[49] ا. م. فورستر، *أركان القصة*، ص79.

[50] إبراهيم فتحي، *معجم المصطلحات الأدبية*، ص86.

[51] مرشد أحمد، *الحداثة السردية في روايات إبراهيم نصرالله*، (لبنان: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010)، ص33، ينظر أيضا: أحمد بستانجي، *إبراهيم نصرالله ورواياته عن فلسطين*،(اسطنبول: نون للنشر، 2013)، ص118.

[52] إبراهيم نصرالله، مقابلة شخصية، عمان، الأردن، 29 آب 2014.

استطاع نصرالله من خلال شخصيات "زمن الخيول البيضاء" أن يصوّر لنا أنواع الشخصيات المختلفة والمتواجدة في الواقع؛ فصّور لنا الشخصية الواثقة: كشخصية الحاج محمود وخالد وريحانة وعفاف والأنيسة، وهناك الشخصية المأزومة المضطربة: كشخصية محمود وبترسون، والشخصية الذكية العنيدة والمضحكة: كشخصية ناجي، والشخصية المتملقة: كشخصية سليم بيك والحاج صبري. وقد نجح نصرالله في نقل هذه الشخصيات بكل أحاسيسها وانفعالاتها من خلال لغته الشاعرية ودقة الوصف والحوار الداخلي و تقنيات السينما.

أسماء الشخصيات في "زمن الخيول البيضاء"

(لكل امرئ من اسمه نصيب) هذا المثل يستحضرنا ونحن نقرأ الرواية وأسماء شخصياتها؛ فالكاتب اختار الأسماء بعناية ووظفها دلالياً؛ فنجد اسم خالد بطل الرواية يدل على خلود اسمه تكريما لبطولاته، والهبّاب: الذي يهبّ ويثور، والحاج محمود: رجل محمود الذكر واللسان، وأنيسة: هادئة حكيمة يأنس الإنسان للتكلم معها، وغيرها.

وهناك أسماء بعض الشخصيات التي أطلق عليها لقب لسبب علة في جسمها أو صفة بها أو دفعا للحسد؛ فهناك حمدان الأعرج، وفتحية الحولة، وسالم الدّقر، وخديجة الهبلة، وأم الفار.

كما أن أبعاد الشخصية الجسمية والنفسية والاجتماعية اعتمد عليها نصرالله لإظهار شخصياته ومساعدة القارئ على تخيلها كما لو أنها أمامه. والأسماء كلها معروفة لنا، فهي من موروثنا الثقافي والاجتماعي والديني والسياسي، وهو بلا شك ملمح ايجابي يوحي بأصالة الروائي إبراهيم نصرالله واعتزازه بتاريخ أمته وتراثها المجيد، وهو في الوقت نفسه يوطد بُعد التلقي لدى القارئ، لأن الأسماء الجغرافية والتاريخية تستدعي الأهلية الثقافية للمتلقي وتحفزه على تقوية حس الانتماء إلى التاريخ.[53] والتفصيل كالآتي:

– عرض الاسم منفردا: وهو على مظهرين: (العلم العربي) خالد، أمل، منيرة، حمدان، فايز... (والعلم الأجنبي) ديميترس، بترسون، هيلانة. هنا عرض الاسم دون إضافة صفة أو تركيب، يذكره نصرالله في سياق سردي يعرفنا بهذا الاسم ثم يذكره مجردا في مواضعه الأخرى ؛ فحين عرفنا على خالد "كان الحاج محمود يجلس بجانب ولده خالد" فأوضح نصرالله علاقة البنوة التي تربط هذا الاسم المنفرد بالحاج خالد. ثم ذكر خالد دون توضيح شيء: "كان خالد قد طار.."[54] "لم يكن جرح خالد قد التأم بعد".[55] وهكذا عندما قدّم بترسون؛ ففي البداية عرّف

---

[53] مرشد أحمد، *البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله*، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005م)، ص43، (بتصرف).

[54] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص9.

[55] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص13.

لنا بترسون: "قال الضابط الإنجليزي بترسون"[56] ثم في المواضع التالية ذكره منفردا؛ "كان بترسون قد وصل" "لكن بترسون قد فاجأ الشاويش".[57]

- إضافة مركب جديد إلى الاسم: كإضافة الكنية: (أبو ربحي،أم الفار..)، أو إضافته إلى الأب أو الجد أو الأخت (أمل ابنة أبو سليم، عفاف حفيدة أبو سنبل، أخو خضرة، أخو العزيزة)، أو إضافة المهنة: (الضابط سند رجب..)، أو اللقب المقرون بالصفة: (فتحية الحولة، سالم الدّقر، خديجة الهبلة)، أو اللقب المجتمعي: (الشيخ السعادات، الحاج محمود، الأب ثيودرس، الخوري جورجيو..)، أو اللقب العائلي: (حسين الصعوب، محمد العسليني، فضل الجابي، داود العمايرة)، وسبب هذا النوع من التسمية: هي رغبة نصرالله في جعل التسمية تتناسب مع مكان الحدث الروائي وعمر الشخصية وسماتها ومهنتها ومكانتها الاجتماعية.

- منح الشخصية اسما وصفيّا: (البدوي، اليوغسلافي...)، لأشخاص لم يشاركوا في أحداث الحكاية بصورة مباشرة وفعالة.

- تسميتها انطلاقا من مهنتها التي تمارسها: (البيكباشي، الدركي، الياور، البرمكي، القائمقام).

تقديم الشخصية

بعد أن أعطى نصرالله الأسماء لشخصياته، لم يقدمها لنا دفعة واحدة؛ بل ظهرت تدريجيا حسب دورها في "زمن الخيول البيضاء" فكان تقديمها كالتالي:

تقديم ذاتي: بأن تقدم الشخصية نفسها بنفسها من خلال اعترافات أو رسائل:

- تقديم نجيب نصّار نفسه: "بعد صمت نظر خالد إلى ذلك الرجل.نطق الرجل اسمه مُعفيا الآخرين من ترددهم".[58]
- تخبرنا منيرة عن نفسها أول أيام زواجها من الحاج محمود: "كنت جاهلة ولم أكن أعرف شيئا من عمل البيت أو سواه ..تصمت منيرة، تحدّق في وجوه أبنائها وزوجها، ثم تقول: الصحيح بشّعت، ولكن كنت صغيرة، وإلاّ لأ يا حاج؟!".[59] حيث تخبرنا منيرة أنها كانت تجهل كثيرا من أمور البيت من طبخ وتنظيف وحتى عناية الأطفال، وتعترف أنها ارتكبت كثيرا من الأخطاء التي كان زوجها شاهدا عليها.

---

[56] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص259.
[57] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص261.
[58] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص136.
[59] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص3،35.

تقديم غيري: بأن تقوم شخصية أخرى بتقديم الشخصية:

- تقديم خالد لسمية: "تذكر قلب سمية ..أحس بأنه الفرح الأصفى والأنبل..مثل فراشة بدت وهي تتطاير حوله..إنها ملاك رحمة.."[60] أخبرنا خالد عندما تلاحقه سمية يحسّ أنها أطهر قلب كالفراشة تطير حوله.
- تقديم القائمقام الهبّاب لأهل زوجته: "هذا رجل له مستقبل"[61] فالقائمقام طمأن عائلة زوجة الهبّاب أنه سيكون له مستقبلا جيدا.

تقديم خارجي: تقديم الراوي لشخصياته من خلال وصف الشخصية برانيّا وجوانيّا، أو ذكر أفعال الشخصية وعلاقتها مع بقية الشخصيات، وهذا التقديم كان الأكثر في روايتنا:

- يخبرنا الراوي عن علاقة خالد بالحيوانات قد بدأت وهو صغير وكانت أولها ركوب جمل: "كان عمره حينها ثماني سنوات حين ركب جملا، وكان سعيدا".[62]
- تقديم شخصية الهبّاب؛ بذكر صفاته وأخلاقه فلم يعرف من هو ولا من أين جاء: "لم يعرف أحد من أين بزغ هذا الاسم: الهبّاب..لفت انتباهه ذلك الرجل الذي يسير معتدّا بنفسه"،[63] "متوسط القامة"،[64] "حاجبين أسودين كثيفين"،[65] "كان الهبّاب خبيرا..ويستطيع أن يعرف الناقة الصافية..بل ويعرف أسماءها".[66]
- تقديم زوجة خالد (أمل): "أحبها ذات موسم غادروا فيه الهادية إلى القدس، كان الحاج محمود يعرف والدها منذ زمن بعيد".[67]
- تقديم الشيخ ناصر:"كان الشيخ ناصر العلي واحدا من أهم القضاة العشائريين..وأكثرهم حكمة"[68]
- تقديم البرمكي: " واحدا من رجالها الأكثر شهرة..كل رجل من هؤلاء ..كان يسمّى برمكي..أما برمكي الهادية فقد عرفه الناس منذ وقت طويل.. وهو رجل نحيف البنية..خطرت بباله فكرة أن يعرض على الحاج محمود..تقديم خدمات حصانه بلا مقابل".[69]
- تقديم إلياس سليم: "وصل الهادية غاضبا كان يحب القدس..وقد كان من قرّاء الأصمعي والقدس".[70]
- تقديم ريحانة: "لم تكن أكثر من امرأة خجول.. هادئة تتعثر خطواتها"،[71] بعد تعلق الهبّاب فيها يذكر لنا الراوي أول لقاء له بها وقد أعجبه خجلها وجمالها.

---

[60] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص192.
[61] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص90.
[62] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص25.
[63] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص12.
[64] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص45.
[65] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص52.
[66] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص161.
[67] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص13.
[68] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص20.
[69] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص54،55.
[70] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص66.

يلاحظ أيضا في تقديم الراوي لبعض الشخصيات، تقديمها مبهمة دون ذكر اسمها في البداية، ثم يصرّح باسمها بعد مواضع؛ هنا يقوم الكاتب بإثارة فضول القارئ وتوقعاته ويشدّه أكثر للنص ومتابعة القراءة للاكتشاف، ومثاله: عندما قدّم (سمية بنت البرمكي) زوجة لخالد في البداية وكان هذا في بداية الكتاب الثاني حيث تبدّل الزمان؛ ذكرها بلفظ (زوجة الحاج خالد): "أشرعت زوجة الحاج خالد الباب قادمة من الخارج..كان الحاج خالد يكبرها بتسع سنوات"،[72] "منذ زواجه تغير الحاج خالد..أما زوجته ففاجأته..حين عادت زوجته بعد أن أدخلت ما تبقى من الطعام"،[73] ثم ذكر اسمها في الموضع الرابع "في المساء قال لها: يا سمية!! إنهم أولاد"،[74] وبعدها يخبرنا الراوي قصة زواجهما في الصفحة التالية.

أدوار الشخصية

الشخصيات في الرواية إما أن تكون:

- شخصيات فاعلة (الرئيسة، النامية): كشخصية الحاج محمود والحاج خالد والحمامة والهبّاب وريحانة ومنيرة وناجي وصبري النجّار وبترسون وسمية وعبداللطيف الحمدي؛ فهي الشخصيات الصانعة للأحداث المتطورة في الرواية والتي أطلعنا عليها إبراهيم نصرالله في "زمن الخيول البيضاء" من خلال مواقفها وصفاتها وتدرّج بإظهارها في الرواية.
- شخصيات مساندة (الثانوية، المسطحة): كشخصية الأنيسة وعفاف وسالم ومصطفى وموسى وصبحية وغيرها؛ وهي شخصيات أحادية الجانب ذات سمة واحدة لا تتطور ولا تتغير، ذكرها إبراهيم نصرالله متناثرة في الرواية لمساندة الأحداث والشخصيات الرئيسة.

أهم الشخصيات في الرواية

- **الخيول**

بما أن روايتنا عُنونت بـ"زمن الخيول البيضاء" لذا كانت الخيول حاضرة بقوة في روايتنا، فهي من أبطال الرواية والتي اتخذها نصرالله رمزاً أيضاً. ولكن لم تكن كلها بيضاء؛ حيث استخدمها نصرالله لخدمة الرواية حسب الأحداث والأشخاص الذين جاءت معهم الخيول. ويرجع الحضور القوي للخيول في "زمن الخيول البيضاء" لأهمية الخيل قديما في حياة الإنسان فكانت وسيلة تنقّله الأساسية قبل ظهور وانتشار السيارات، وكانت تعينه أيضا في حراثة أرضه عندما كان

---

[71] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص105.

[72] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص187.

[73] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص189،190.

[74] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص191.

الحقل مصدر الرزق الأساسي للإنسان قبل ظهور المصانع والشركات وغيرها؛ فكان من الطبيعي احتلالها مساحة مهمة في روايتنا إضافة إلى ذلك اهتمام الإنسان العربي بالخيل الأصيل وتربيته واتخاذه صديقا.

تناوبت الخيول في أدوارها في الرواية فكانت (الحمامة، الأدهم، الشهباء، الحمدانية، ريح، عنتر، شداد، الجليلة)، والتي استخدمها نصرالله بالمعنى الحقيقي لكلمة الخيل فكانت تابعة لصاحبها، لكن (الحمامة) و(الأدهم) خرجا عن هذا المعنى ولعبا دوراً رمزياً أيضاً وأصبحا في منزلة متساوية مع أصحابهما، فنرى الحمامة وقد تحولت لامرأة تتكلم مع خالد وهو يتكلم معها؛ امرأة حرة وطاهرة وتصمد مع فارسها ما بقيت حية؛ وكانت أيضا رمزا لفلسطين الحرة التي ترفض الاحتلال وتصمد بفرسانها على مر الزمان، والأدهم حصان زوج ريحانة، الذي قتله الهبّاب وسكنت روحه الأدهم، فكان الرجل الذي يدافع عن شرف ريحانة وقدّم حياته نظير ذلك.

ارتبط ذكر الخيل بلونها في "زمن الخيول البيضاء"، ونحن نعرف التأثير النفسي للون على الإنسان وهذا ما حرص نصرالله على تحقيقه، فجاءت الحمامة بلونها الأبيض وهو ما يعكس معاني الطهر والنقاء والعفة، وهو لون يرمز للسلام لكن الحمامة لعبت أدوارا أخرى أضفت عليها كثيرا من الإنسانية ومنها:

- معجزة كالملاك: "معجزة كاملة تجسّدت..كان الغبار يتلاشى ويحتل مكانه بياض لم يروه من قبل، ظل توهّجه يزداد شيئا فشيئاً حتى بان كله. ولم يكن هناك ما يفتنهم أكثر من جمال مهرة أو حصان..هنالك حرة تستغيث. أجيروها".[75] فنحن نعرف أن الملائكة مخلوقات من نور، وبياض الحمامة كأنه نور سقط من السماء فكانت كالمعجزة. ولأجلها خُصصت خطبة الجمعة للحديث عنها، وقُرأ عليها القرآن: "لثلاثة أيام متواصلة رفضت الحمامة أن تغادر مكانها، حاول أكثر من رجل يعرفون طبائع الخيل..حاول الشيخ حسني، الذي قرأ عليها: ﴿والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا..﴾، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: (كل شيء ليس من ذِكر الله فهو لهو ولعب إلا أن يكون أربعة:..وتأديب الرجل فرسه...).[76]

- امرأة: صور المرأة في الحمامة كانت مزدحمة في روايتنا، فها هي امرأة مصون لها شرفها وطهرها؛ فكانت إهانتها محرمة في بيت الحاج محمود، كما لا يجوز الاعتداء عليها؛ لذا وبّخ خالد سارق الحمامة: "ألم تعرف أن سرقة الفرس مثل سرقة الروح..لا ستر لمن لا يستر حرة"،[77] ومن تجرأ واعتدى عليها فتجب محاكمته وأخذ الحق منه؛ كحادثة حصان البرمكي معها: "كانت محاولة شدّاد مواقعة الحمامة بالنسبة لهم لا تختلف عن محاولة رجل الاعتداء على شرف فتاة".[78] فقامت الدنيا وفار دم أهلها يريدون الثأر من البرمكي ولأجلها جاءت جاهة من كبار الرجال لطلب الصلح بعد ثلاثة

---

[75] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص9.

[76] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص23.

[77] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص10.

[78] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص71.

أيام من فورة الدم، ويحكم لأجلها كما لو أنها فتاة، بعد قياس واقعتها بِ (مصايحة الضحى)،[79] "أعرف أن هذا الحق كبير، ولكنكم تعرفون أننا بهذه الأحكام قد صُنّا أعراض الناس، بحيث لا يستطيع أحد أن يفكر بالاعتداء على شرف إحداهن".[80]

- المرأة عندما يتم زفافها تخرج من بيت أهلها بالعباءة ويتم كتابة وثيقة بذلك؛ وكذلك الحمامة عندما خرجت من بيت الحاج محمود ألقى عليها عباءة مطرزة، وكذا عندما رجعت لهم من عند أهلها "طمأنه وجود العباءة، الزينة. لا تخرج أصيلة من بيت أهلها على هذا النحو إن لم يكونوا قد باركوا طريقها". [81] وبعد أن تم تلقيحها كتبت وثيقة بنسبها.

- تنخفض لتقبيل حافرها قامات لرجال مهيبة، كما فعل طارق وخالد: "أخذ وجهها بين راحتيه أخفضت رأسها هدأت تماما..انحنى أمامها..أمسك حافرها الأول رفعه برفق وقد منحته إياه قبّله بهدوء".[82]
- تزهو وتصبح أكثر جمالا عند حملها، وتطالها دعوات نساء القرية لتقوم بالسلامة.
- ابنة العائلة: كانت كواحدة من بنات العائلة لها مكانتها بينهم، كما كانت الحمامة في بيت الحاج محمود، فها هو ينشد لها:

إذا ما الخيل ضيعها أناسٌ حميناها فأشركت العيالا
نقاسمها المعيشة كل يوم ونكسوها البراقع والجلالا".83

-امرأة عاقلة: تسمع وصية منيرة، "همست لها: "ديري بالك على ولدي هو أمانة عندك وأنتو الاثنين أمانة عند الله".[84] أما طارق فأوصى خالد بها "صنْها تصُنْك، وارعها برفق تكن حصنك".[85] لذلك عندما جاءت الحمامة بعد مقتل الحاج خالد إلى الهادية دونه صاحت بها سمية: "ما الذي تفعلينه هنا؟"،[86] ارتبكت الحمامة وبكت وانطلقت تعدو ولم تجب أي نداء حتى نداء فاطمة، وكانت هذه أول مرة لا يستجيب فيها حيوان لفاطمة، ومن بعدها اختفت الحمامة ولم نعرف نهايتها.

---

[79] هو الاعتداء على فتاة بالقوة والقسر في وضح النهار، وهي تصرخ وتقاوم الاعتداء. محمود سالم ثابت، *القضاء العشائري*، (غزة: منشورات موقع أم الكتاب للأبحاث والدراسات الإلكترونية)، ص117.

[80] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص73.

[81] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص41.

[82] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص30.

[83] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص11. الأبيات للأخطل (غياث بن غوث التغلبي).

[84] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص42.

[85] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص49.

[86] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص375.

– كانت هي المرأة التي عشقها خالد، فكانت هي (أمل) و(ياسمين)، لقد جاءته الحمامة لتسلّيه في وحدته بعدما فقد زوجته؛ فلقد تصادف ظهورها بعد وفاة زوجته (أمل) التي كان متعلقاً بها لدرجة كبيرة، مما ترك ألماً كبيراً عنده حتى صار يهذي: "كيف استطاع أن يأخذها من بين يديّ ..وفجأة وصلت الحمامة"،[87]وكأنها جاءت تصديقاً للمثل الشعبي: "اللي ما إلو عيلة يقناله كحيلة"؛ والذي قالته عمته أنيسة بعدما فقدت الأمل بعدم طلبه الزواج وتعلقه بالحمامة، وكذلك عندما فقد ياسمين لم يستطع إبقاء الحمامة معه، لأنها تذكره بها وأرجعها لأهلها.

– كما كانت الحمامة امرأة بالغة كانت طفلة أيضا :"كان يبدو له أنها تسير مثل بنت صغيرة فرحة بجديلتيها، تلقيهما مرة على كتفها الأيمن ومرة على كتفها الأيسر ومرة نحو السماء، أو تركض فتثمل بوقْعِهما على ظهرها".[88]

– المرأة الصبورة التي تحتمل أعباء الحياة مع زوجها، هكذا عاتبه أهلُها عندما خاف عليها من موجة القحط التي عمت القرى ذلك الوقت،[89] لذلك أرجعوها له–كانت حفيدة الحمامة– وهو في الجبال لتكون بجانبه أثناء قتاله الإنجليز واليهود.[90]

– كان ينال الخيل شرف الدفن وكأنه أمير، كما فعلوا بالعزيز ابن الحمامة.[91] وكما فعلت ريحانة بالأدهم.[92]
– كان الرجل منهم يشاركها أسراره وأحزانه ولا يتحرج من البكاء أمامها، وكان يُعرف من فرسه[93]
– كانت الحمامة كلمة السر بين المقاتلين في الهادية.
– كان هناك نوع من الحمام الطائر اسمه "الهزّاز" كان شبيها بالحمامة الفرس، أحضره الحاج خالد لزوجته التي تحب الحمام، وهو غال أيضا على أصحابه كما الحمامة، فلم تستطع سمية ذبح أي منه، لذلك عندما حرق اليهود برج الحمام كان هو موجودا فيه.
– كما كانت الحمامة امرأة لخالد، كان الأدهم رجلا لريحانة، بل أقوى من الرجال؛ لأن الرجال لم يستطيعوا حمايتها من الهبّاب لكنه فعل، ولم يسمح للهباب بامتطائه كما اتفقت معه الريحانة. " ليس ثمة حيوان أذكى من الحصان، هذا ما يعرفه الناس هنا، ويؤمنون به، وقد فهم الأدهم ما تريده ريحانة منذ البداية، منذ اختلائها به، حين طلبت من أهلها أن تراه على انفراد قبل مغادرتها بيتهم. ما الذي يمكن أن تقوله امرأة لحصان تختلي به؟ نصف الحكاية كان واضحا بالنسبة

---

[87] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص21.
[88] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص79.
[89] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص156.
[90] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص332.
[91] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص150.
[92] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص293.
[93] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص135.

لهم، أما نصفها الثاني فيربض هناك في مجاهل المستقبل".[94] كان لون الأدهم أسودا، وهو لون التعاسة والحزن، علاقته عكسية مع الأبيض لون الحمامة، فقد كانت نهايته حزينة بقتل الهبّاب له بعدما لم يستطع امتطاءه؛ هذا ما اشترطته ريحانة على الهبّاب لتكون له، وكيف بامرأة شريفة تكون امرأة لرجل وضيع قاتلٍ لزوجها، لذا أوصت ريحانة الأدهم أن لا يسمح للهباب بامتطائه ثأرا لشرفها وكرامتها وقد نجح الأدهم وألبس العار للهباب، هذا العار الذي لم يستطع الهبّاب تحمّله فقتل الأدهم.

- تحولت الفرس في عدة أحوال إلى إنسان وكذلك العكس؛ فخالد تحوّل إلى حصان بعدما تسرّب جسد الحمامة فيه[95] وهذه ياسمين وكأن معجزة أحالتها إلى مهرة[96] كما احتلت مكان أمل بعد أن كان خالد قلقا من أين يجد امرأة كالحمامة[97] وكذلك استقرار ريحانة في جسد الأدهم[98] حتى صار اسمها (ريحانة الأدهم) فكانت أول إنسان في البلاد ينسب إلى حصان[99]. كانت تهمس دائما لخالد حتى كأنها نطقت اسمه[100]، لكنّ الأعجب أن تتحول الحمامة إلى فرس وهي في الأصل فرسا لكنّ فرط حب عائلة الحاج محمود لها عاملوها على أنها إحدى بناتهم لذلك عندما حالت وأحس بها البرمكي أحس أنها قد تحولت إلى فرس.**[101]**

- لقد تقدم الحصان على الإنسان في النص الذي اختاره نصرالله ليكون عتبة من عتبات الرواية:"لقد خلق الله الحصان من الريح، والإنسان من التراب، وأضاف والبيوت من البشر"، وذلك بعد عنوان الرواية في الصفحة الثالثة، فحاز الحصان على المرتبة الأولى ثم جاء بعدها الإنسان، ثم البيت، ولكن الإنسان الفاعل المحب استطاع أن يحوز منزلة الخيل في العمل الروائي فنزلت إليه وصعد إليها ليصبحا في مرتبة واحدة .إنها العلاقة المتميزة التي تربط العربي بجواده، الممتدة منذ آلاف السنين، وتتعدى كونه أداة ينتقل بها، أو وسيلة للقتال، لتمتد إلى علاقة امتزجت بالحب والصداقة والوفاء.[102] امتدت لتكتب هذه الخيول أقدار رجالها، كما قال محمود بن الحاج خالد.[103]

---

[94] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص95.

[95] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص26.

[96] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص83.

[97] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص76.

[98] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص171.

[99] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص291.

[100] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص119.

[101] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص55.

[102] وفاء عوني الخضراء وعالية صالح، " تبادل الأدوار بين الإنسان والحيوان في رواية زمن الخيول البيضاء"، *دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية*، المجلد 37، العدد 3، 2010، ص:577.

[103] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص424.

– شخصية خالد:

هو الشخصية الفاعلة للأحداث، بطل الرواية الذي رافقنا طيلة أحداثها، تظهر شخصيته من خلال إخبار الراوي العليم عنه، ومن خلال تقديمه لنفسه في بعض الأحداث.ونفهم هذه الشخصية من خلال أبعادها:

—البُعد الخارجي: كان أشقر اللون وجهه مستديرا، أخضر العينين، طويلا وعريضا، وبعد زواجه أصبح له شاربان طويلان، كما وصفته أمه: "من أين لهم بعريس لابنتهم بهذا الطول..والشّقار والعيون الخضر"،[104] كان مشهورا بقدرته العجيبة على الركض فلم يستطع أحد لحاقه (ابنه ناجي ورثها عنها)، أصيب في عمر 55 بمرض السكري. وكان يتحول لكتلة من الجمر عند غضبه لكن سرعان ما يهدأ. كانت عنده حركة تلازمه إذا توتّر فيعتصر جبينه بأصابع يده اليسرى. وهو ما يؤكد دقة نصرالله في تصوير شخصياته، فلا يترك صغيرة أو كبيرة إلا ويعرضها.

—البعد الاجتماعي: هو الابن الأكبر للحاج محمود، كان أميّا، أصبح بطلا وتُحكى عنه الحكايات حتى تحوّل لأكثر من بشر بعد قتله للدرك الذين استولوا على أموال القرية والحمامة، ثم أصبح مختار القرية بعد أبيه. كان بارّاً بوالديه، وكان حريصا أن لا يظهر حزنه لهما حتى لا يتألما.[105]

أصبح قائد الثوار ومدير العمليات على الإنجليز، وقد استشهد عام 1939 بعد وشاية الحاج صبري النجار عنه. ظلّ اسمه خالدا حتى بعد موته، فكان يتردد اسمه مع الأبطال كما ظهر طيفه لابنه ناجي وأخيه.
متزوج؛ حيث كان في حياته ثلاث نساء: أولهن أمل؛ التي خطفها الموت منه، وثانيهن: ياسمين تلك التي سحرته بمنديلها السكري و كان يحلم بها دوما حتى ظنها مجرد حلم لا حقيقة، في نهاية الأمر خطبها ولكن لأنه أصبح فراريا ومطلوبا، زوجها أبوها لغيره فكانت صدمة له. المرأة الثالثة كانت سمية بنت البرمكي والتي تزوجها وأنجب منها أولاده.
أب: لخمسة أبناء (محمود، فاطمة، موسى، ناجي، تمام). يحب أطفاله جدا، ويعاملهم معاملة حسنة وخاصة بنتيْه؛ فقد رباهما حرتين كالحمامة. ناجي كان مثل أبيه مقاتلا، ومحمود كان تأثره بالحياة المدنية والسينما يبعده عن قريته وأهلها، وكانت شخصيته هشّة وحساسة، أما فاطمة فكانت أشد من أبيها في تعلقها بالحيوانات.

—البعد النفسي:

الشجاعة: لم يكن ينتظر أحدا لنصرة المحتاج: " قبل أن يصل الرجال إلى الفرس، كان خالد قد طار بفرسه قاطعاً الطريق على الرجل الهارب".[106] من شجاعته أيضا خطفه ياسمين يوم عرسها من بين الناس وارجاعها دون أن يتعرف عليه أحد.

---

[104] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص14.
[105] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص39.
[106] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص9.

وقوفه بوجه عبداللطيف ورفضه الانضمام إلى صف قُراه، ووقوفه ضد الإنجليز وتعرضه للتعذيب منهم لأنه لم يفصح عن أسماء المتمردين.

الحِلم وسعة الصدر: عفوه عن سارق الفرس: "ألم تعلم أن سرقة الفرس مثل سرقة الروح، أُنج بدمك، قبل غروب هذه الشمس وإلا سنطعمك للكلاب".[107] سعة صدره لاستيعاب أخطاء أولاده وطلباتهم؛ فعندما طلب ناجي الشهباء حاول معه ليحضر له غيرها وعندما لم يقبل زوجه صاحبتها لتكون له.

عنيد ومثابر: بشهادة والده أنه إذا أراد شيئا لا يتركه حتى ينفّذه أو يحصل عليه: يذكر أبوه أن خالد اختبأ في السفوح يومين لملاحقة غزالة وعاد بها، لكنه ما لبث أن تركها بعدما استجارت به. وكذلك عندما أرجع الحمامة بعد أن أخذها محصلوا الضرائب وقتلهم جميعا. عنيد لدرجة أن يبقى عشرة أيام متواصلة تحت أشعة الشمس بانتظار ظهور ياسمين غير مبالٍ بكلام الناس.

مرهف المشاعر: نحن نعرف خالد ذلك الشاب الشجاع المقاتل، لكن ذلك لا يمنع أن يكون لديه قلب مرهف ورقيق، يتعامل برقة مع الآخرين، يتعلق بمن يحبه (الحمامة، ياسمين) فهو يسمع لموسيقى الرياح التي تحمل ياسمين، وهو يتحسس لمسة الغزالة ولمسة ياسمين من بعدها، يحب الغناء والاستماع إلى الشبابة. بعد زواجه من سمية أصبح أكثر هدوءاً والابتسامة لا تفارقه. برأيه أن أجمل ما في الدنيا هي المرأة.[108] ولأجلها يفدي روحه؛ فحتى لا تحزن ياسمين تلقى طلقة كانت موجهة لزوجها على الرغم من مرور سنين على افتراقهما.

الرفق واللين: كانت له شعبية بين الناس صغيرهم وكبيرهم؛ فهذا كريم ينتظره أمام بيتهم يريد رؤيته، فيخاطبه بكل رفق ويركبه "ريح" ويوصله إلى بيته، وكذلك رفقه مع الحيوانات من خيول وإبل وغزلان بل ويتفاهم معهم.

الكرم: وهي صفة موروثة من جيل لجيل في البيت العربي لا يمكنهم الاستغناء عنها، إكرام الضيف وإكرام الأسير كما فعل مع الأسرى الذين وقعوا في أيديهم وكان بينهم يهودي والضابط سند فأخلى سبيلهم.

حقّاني :يرجع حقوق الآخرين؛ مثلما استرد بواريد الفلاحين من عبد اللطيف. وكان يقاتل الدرك واليهود والإنجليز ليسترد حقه، لأجل ذلك لجأت له ريحانة ليخلّص ابنها من حبل المشنقة.

—البعد الفكري:

ذكي: فقد شكّ في نيّة الدير بإيصال العشر للحكومة بدلا عنهم، ويدل على ذكائه أيضا طريقته في الظفر ممن يعاديه أو يقابله بسوء؛ بأن يجرد الخصم من قوته شيئا فشيئا ثم يضربه القاضية، كما فعل مع جنود الدرك الذين استولوا على الحمامة، وكما فعل أيضا مع الرعاة الذين زحفوا إلى أراضيهم. كما ظهر ذكاؤه عند مباغتته –للدركي الذي يلاحقه– بسؤاله إن كان قريب الزعبي مما جعل الدركي يخجل من زيادة الأسئلة عليه.

ذكي حتى في تكتيكه للقتال، فكانت جميع هجماته على العدو ناجحة وأوقعت خسائر جمّة فيهم، لذلك صار مطلوبا ومحكوما عليه بالإعدام.

---

[107] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص10.

[108] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص204.

متمسك بالعادات والعرف: فلم يقبل السهر بالمقهى لأنها تنقص هيبة الرجل، وأنكر على ابنه محمود أنه لم يركب على الفرس يوم زواجه وقد كانت هذه من عاداتهم.

محب للعلم: ولذلك أصرّ أن يكمل محمود دراسته وذهب به إلى القدس ورام الله، وهناك ناقش مدير المدرسة التبشيرية ونجح، قال لابنه محمود: "أنت تعرف مشكلتنا قائمة في قلة التعليم لدينا، أقصد هنا في القرى، كما لو أنه حرام علينا وحلال على سوانا. لا العثمانيون كانوا يريدوننا أن نتعلم ولا الإنجليز ولا حتى هؤلاء الوجهاء؛ أنت تعرف أن عبد اللطيف الحمدي طرد أحد المزارعين الذين يعملون في أرضه لأنه تجرأ وأعلن أنه يريد تعليم ابنه".[109]

كانت فلسفته في القتال: "أنا لا أقاتل كي انتصر ولكن كي لا يضيع حقي".[110]

نجد أن الصفات التي تحلّى بها خالد جعلت منه الشخصية النموذجية ليكون بطل الرواية؛ الذي يصنع التغير ويصنع الحدث ولا يقبل الإهانة أو الظلم ويسعى لردّ حقه حتى لو ضحّى بحياته، هكذا هم الأبطال، هكذا أبطال فلسطين ما زالوا يقاتلون كي لا يضيع حقهم في فلسطين، منذ أكثر من سبعين عاما وما زالوا يقاتلون ويرتقون شهداء عند ربهم، شهداء خلف شهداء يتتابعون ولا ينقطعون حتى يعود الحق لأصحابه عندها سيهدأون.

علاقة خالد بشخصيات الرواية:

الأبوة : ⟵ الحاج محمود

الأمومة: ⟵ منيرة

الأخوة: ⟵ سالم، محمد، مصطفى، العزيزة

الزواج: ⟵ أمل، سمية

الخطوبة: ⟵ ياسمين

البنوة : ⟵ ناجي، محمود، موسى، فاطمة، تمام

الصداقة: ⟵ الحمامة، إيليا راضي، هاشم شحادة

العداوة : ⟵ الهبّاب، صبري النجار، عبداللطيف الحمدي، بترسون

الجيرة: ⟵ البرمكي

نلاحظ أن أكثر الشخصيات التي وردت في روايتنا ترتبط بعلاقة مع شخصية البطل، فكلها تحوم في فلكه.

---

[109] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص218.

[110] هذه المقولة اشتهرت على لسان المجاهد الشهيد عمر المختار.

- **شخصية الهبّاب:**

نقول هبّت الريح: أي ثارت وهاجت. وللهباب من اسمه نصيب؛ فهو دائم الثوران والغضب، ولعل ظهوره في كتاب الريح من الرواية لم يكن عبثاً. "لم يعرف أحد من أين بزغ هذا الاسم: الهبّاب. لم يعرفوا إن كان ثمة اسم آخر له قبل هذا".[111]

هي الشخصية الأكثر دموية في روايتنا من الشخصيات الفلسطينية، الند للشيح محمود وخالد، والذي يحطمها الحب في نهاية القسم الأول والحس بالذّل. وكذلك تمثّل الشخصية الفلسطينية الأنانية الخائنة التي تتعاون مع العدوّ للوصول للسلطة وتحقيق مصالحها .كان يوشي عن أهل القرية للدرك، ويستعمل رجالا له من القرية مقابل المال.

—البُعد الخارجي: كان رجلا متوسط القامة له حاجبان كثيفان أسودان، يلبس عباءة سكرية وطربوش أحمر. قوي البنية، فقد استطاع تحمل الألم من طعنة خنجر "القائمقام"، كما كان يعتصر يد من يشتري منه الخيل ويضغط عليها حتى يستسلم البائع لسعر الهبّاب، لكن خالد الوحيد الذي استطاع أن يعتصر يده.[112]

—البعد النفسي: اتسم الهبّاب بصفات جعلته مكروها ومنبوذا من الناس:

شديد وحادّ: كان قويا وشديدا لدرجة أن لا يتألم من طعنة خنجر. ولا يتألم لطعنه أي أحد، وكان أيضا شديدا على نسائه فيخفن منه.

خائن: فقد كان يسهّل للدرك القبض على الفرارية والوشاية بهم.

وضيع: فقد كان يسلب المرأة من زوجها بعد قتله،[113] وكان يتلصلص على النساء أيضا كما روت ريحانة عنه.[114] والتي كسرته بحبه لها، ولأجلها لم يسلب امرأة بعدها.[115] وكان يبخس الناس حقوقهم عندما يشتري منهم فرسا أو جملا. كما أنه لا يحترم أحدا حتى لو كان شيخا. وكان لا يتوانى عن الوشاية ليكسب مزيدا من العطاء، وبقي وضيعا حتى أنفاسه الأخيرة، بعد أن أوقع الناس بفخ ثم سلّمهم للدرك.

قليل الصبر: العدّ حتى ثلاثة كانت أعلى درجات صبره على أي شخص أو حتى حيوان، لذا حرصت زوجته صبحية أن لا يلفظها وقد أنهى ثلثي حياتها،[116] فالرقم ثلاثة كان يعني الموت بطلقة في الرأس.

متملق: يسعى لنيل السلطة والمال على حساب كرامته، فلم يبخل بتنفيذ أوامر القائمقام بإذلال الناس وتحصيل الضرائب وقتل المعترض منهم، كما أنه تزوج من(سلمى) بنت عائلة كبيرة بوساطة القائمقام لأجل مكانة عائلتها.

غامض: فلم يُعرف أصله ولا من أين جاء.

---

[111] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص12.

[112] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص167.

[113] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص50.

[114] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص106.

[115] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص162.

[116] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص51,52.

خبير بالخيول والنوق: قد تكون هذه الصفة الوحيدة المحسوبة لصالح الهبّاب، فقد كان يعرف أنواع الخيل والنوق بمجرد النظر فيها، وعلى الرغم من وضاعته إلاّ أن لم يسلب أي خيل أو ناقة من صاحبها.[117]
فضولي: يجب أن يعرف الشاردة والواردة في القرى ويتتبع الأحداث من عليّة قصره.

—البعد الاجتماعي

السلطة: بعد أن أعجب بقوة تحمّله، جعله القائمقام محصلا للضرائب مذلّا للناس[118] فاستطاع بسلطته وسطوته اخضاع القرى المجاورة لحكمه إلا الهادية فقد كان يهاب الحاج محمود[119]. كان صاحب أملاك وقصر له علية يُطل منها على الناس.
متزوج: له ثلاث زوجات (سلمى) تزوجها حسب الأصول والعادات (صبحية وريحانة) تزوجهما بالإكراه سبْياً.
أب لستة أولاد من سلمى، يعيشون مع أمهم في يافا.

البعد الفكري:

كانت سياسته إثارة العداوات وتتبعها بين الناس، وزرع عيون له بينهم ليسهل اصطيادهم. كان ولاؤه لصاحب القوة؛ أي العدو، لذا كان يشي عن كل مخالف للدولة.

كان صاحب مقولة "الخوف الذي قتله" والتي نستعملها الآن، بعد أن طعن رجلا معترضا على الضريبة وقد خرج الخنجر الذي طعنه به جافا من الخوف.[120] ليس للمرأة عنده أي قيمة فهي للمتعة فقط، ولكن ريحانة فرضت لنفسها قيمة ولأجلها لعن اليوم الذي وجدت فيه المرأة.

من الشخصيات الشبيهة بالهبّاب ووريثته في الفساد، شخصية عبداللطيف حمدي، حيث استولى على قصر الهبّاب وصار ذنباً للإنجليز، بعدما كان يقاتل لجانب الأتراك وعندما لاحظ هزيمتهم استدار وقاتل مع الإنجليز وقتل زملاءه.[121] أخضع القرى لصفّه عدا الهادية مما سبب العداوة مع الحاج محمود فقتله، وحاول قتل خالد لكنه لم ينجح.[122] هذه الفئة من الشخصيات كانت من أشد العوامل ضررا على فلسطين، فالضربة التي تأتي من بين الأهل تكون الأوجع والأشد، لقد ساعدت هذه الفئة العدو في إحكام قبضته على فلسطين ووقوعها ضحية بين أيديهم.
ومنهم أيضا (صبري النجار)، و(سليم الهاشمي)، والضابط الفلسطيني (سند رجب)، و(فوزي القاوقجي) كلهم كانوا لخدمة العدو.

---

[117] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص162.
[118] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص27.
[119] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص131.
[120] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص45.
[121] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص265.
[122] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص275.

- **شخصية الحاج محمود**

والد خالد بطل روايتنا، شخصية رئيسة، صحيح أنها رافقتنا في أحداث الجزء الأول فقط من الرواية كمختار لقرية الهادية، لكن ورد ذكرها في بعض الأحداث في الجزأين الآخريْن. وهو يمثل الرجل الفلسطيني بشكل عام، حيث يعرف عنه كرمه وشجاعته وحكمته وفراسته واحترامه لزوجته وأولاده وأرضه ووطنه.

–البعد الاجتماعي: هو مختار قرية الهادية، وبسبب شخصيته الرصينة وحكمته كانت له مكانة بين القرى المجاورة أيضا. والده الحاج عمر وله أخت هي الأنيسة، زوجته منيرة وله خمسة أبناء: (خالد، محمد، سالم، مصطفى، العزيزة) أولاده كانوا أبطالا؛ اثنين منهما استشهدا في حياته وهما: (محمد، ومصطفى) زمن الأتراك، وابنه خالد البطل استشهد بعد وفاته زمن الإنجليز، أما ابنه سالم فقد دافع بكل قوته لحماية الهادية حتى خرج منها قبيل النكبة، وابنته العزيزة فقد شهدت أحداث النكبة وهُجّرت من القرية على عربات الأمم المتحدة بعد أن أحرقوا الهادية. قُتل الحاج محمود على يد مسلحين بأمر من العميل عبداللطيف الحمدي.

–البعد النفسي: كان لدى الشيخ محمود مجموعة من الصفات أهلته ليحتل مكانة اجتماعية محترمة منها:

حكيم: فقد كان يعالج المشاكل بحكمة وروية مما أكسبه مكانة بين القرى الأخرى، ولم يكن يقبل "إهانة امرأة أو إهانة فرس".[123]

رحيم ورؤوف بأولاده وزوجته: فتّش الحاج محمود عن مهرة تشبه الحمامة، كان على استعداد لأن يفعل كل شيء كي يُعيد الخضرة إلى قلب ولده"،[124] "الصحيح، العزيزة بنت أبوها أكثر ما هي بنتي".[125]

صبور: تزوج منيرة وقد كانت صغيرة لكنه صبر على جهلها. وكان صبورا أمام المشاكل التي يفتعلها الهبّاب والرهبان.

كريم: يكرم أهل القرية والضيوف، ومَن يكرمه بشيء يكرمه الحاج محمود بأكثر منه: "فجر اليوم التالي، استيقظ الحاج محمود ألقى بأفضل سرج يملكه فوق ظهر الفرس، زيّنها بشرائط ملونة وأجراس فضية..لقد وصلتنا عارية ولا يجوز أن تعود لأهلها بأقل من هذا، قال لابنه...وقبل أن يتحركوا خلع الحاج محمود عباءته وألقاها على ظهرها. كان ما فعله يتجاوز كل حدود الكرم".[126]

محبا وداعيا إلى السلام والتعاون بين الناس وازالة الخلاف بحكمة وذكاء؛ فمثلاً عندما اشتد الخلاف بين الناس بعد بناء الدير وارتفاع الصليب أكثر من ارتفاع مئذنة المسجد: "هنا تدخّل الحاج محمود حاسما الأمر: إن كنا فوق هذه الأرض أو تحتها فالمسافة التي تفصلنا عن الله جلّ جلاله واحدة ..فهناك شيء واحد مؤكد بالنسبة للجميع، وهو أن شخصا قد تم

---

[123] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص35.

[124] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص39.

[125] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص37.

[126] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص31.

صلبه، وسواء كان هذا الشخص نبيا أو إنسانا عاديا.. فإن علينا أن نحس بعذابه. عند هذا الحد انتهى النقاش وعاد الناس ينظرون للصليب نظرة مختلفة".[127]

من أشهر أقواله التي كان يرددها دائما ورددها خالد من بعده: "لا يمكن لأحد أن ينتصر إلى الأبد، لم يحدث أبدا أن ظلت أمّة منتصرة إلى الأبد".[128] "فالمرء لا يستطيع أن يفقد شيئا هو في الأصل لغيره وإلا سوف يعذب نفسه مرتين، مرة بجهله ومرة بفقدان ما ليس له..".[129] "وتذكّر أن مَن تعرفه الخيل لن يجهله الناس".[130]

- **شخصية رجال الدين:**

كان لشخصية رجال الدين من المسلمين والنصارى دور فعال في كثير من أحداث رواية "زمن الخيول البيضاء"، كشخصية الشيخ ناصر العلي، وشخصية الأب ثيودروس وجورجيو وإلياس سليم والأب منولي؛ لذا سنتكلم عن بعض شخصيات رجال الدين ومكانتها ودورها في الرواية:

كان للشيخ وإمام المسجد في المجتمع الفلسطيني مكانة واحترام، فكان المرجعية في حل الخلافات، وكان يرأس جاهة الصلح وجاهة طلبة العروس، وكان أيضا أستاذا للأطفال يحفّظهم القرآن وبعض علوم اللغة.

الشيخ **ناصر العلي**: كان من الوجهاء بين الناس، ويلجأ إليه في الخلافات والفتاوى وترأس الجاهة، ومن أبرز أدواره في الرواية: حلّه معضلة طلاق خالد لزوجته بعد أن حلف ثلاثاً أنها أجمل من الشمس والقمر، بعد أن استشهد بآيات من سورة التين، فكانت هذه الحادثة دليلا على ذكائه وفطنته. وكذلك ترأسه جاهة خالد عند خطبته لأمل: "دارت القهوة، أمسك الشيخ ناصر العلي رئيس الجاهة بفنجانه...جئنا نطلب... يد مهرتكم لخالد ابن الحاج محمود...مكانتك كبيرة يا شيخ ناصر وهذه الوجوه الطيبة، اشربوا قهوتكم،من أين لنا بعريس أصيل لابنتنا مثله؟"[131] فكان من العادات في جاهة الزواج أن يتكلم رئيس الجاهة وغالبا ما يكون الشيخ، وتقدّم القهوة ولا تشرب إلا بعد استجابة طلبهم، وعند طلب العروس لا يلفظون اسمها أمام الرجال بل يستبدلونها بلفظ "مهرتكم" احتراما وصونا للمرأة.

أما بالنسبة للرهبان فقد كان لهم أيضا مكانتهم واحترامهم، فجاء المحترمون السبعة إلى الهادية وأقاموا الدير –والذي بُني بأيادي أهل القرية– فوق تلة فيها،كانت مهمتهم إقامة شعائرهم الدينية لأولئك المسيحين الموجودين بالقرية، وتعليم الأطفال القراءة والكتابة، بعدما اتفقوا مع الحاج محمود على أن لا يعلموهم الدين المسيحي: "يتذكر الخوري جورجيو ذلك

---

[127] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص22.

[128] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص371.

[129] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص28.

[130] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص41.

[131] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص15.

اليوم الشتائي البارد الذي وافق فيه أهل القرية له على أن يقوم بتدريس أبناءهم في الدير.. قبِل الخوري جورجيو بالشرط الذي وضعه الحاج محمود: يتعلم الأولاد القراءة والكتابة.."،[132] لكن حاول بعض الرهبان استدراج الأطفال للمسيحية الأمر الذي أثار الأهالي: "حين هاجم عدد من رجال الهادية المبشر أنطونيوس، الذي لم يكن يجد فرصة متاحة إلا ويدسّ في جيوب الصغار كتيبات من قصص الكتاب المقدس.. قائلا لهم: من يحفظها مكافأته تنتظره.."،[133] فقد كان أنطونيوس يستغل تدريس الأولاد القراءة والكتابة، ويعدهم بمكافأة إذا ما حفظوا متون الإنجيل.

كذلك يتضح جشع الرهبان وحرصهم على المال وعلى القرية وكأنها ملك لهم، من خلال شخصية الأب **ثيودروس**؛ عندما أحضر معصرة الزيتون مقابل أجرة بالإضافة إلى عشر المحصول: "الأب ثيودروس لم يكن يثق بأحد إلا بعينيه، بما يراه، وقد حيّر ذلك الحاج محمود ..وهو يراه يتصرّف كأسوأ تجّار المدن أكثر مما يتصرف كرجل دين".[134] فإحضار معصرة ومحاسبة الناس عليها هو عمل تاجر لا راهب، فبات عمله دنيوياً مع أن الأصل أن يزهد بالدنيا وينقطع للعبادة، كما كان يصرخ على الأولاد الذين يتسلقون شجرة الزيتون وكأنها له.

شخصية الخوري **جورجيو** الذي كان يدعو الله بإنزال المطر ليس لإنعاش الناس والزرع، بل ليدوم المحصول الذي هو باب رزق الدير: "لكن الشيء المؤكد أن الخوري جورجيو قد أيقن أخيرا أن ما يمكن أن يحققه من وجوده هنا هو ذلك (العُشر) الذي يتصرف به على هواه... ولذا حين كان يدعو الله يرجوه مطرا وخيرا يعمّ البلاد كان صادقا تماما، فقد كان يعرف أن وجود الدير في القرية الأكثر خصبا، نعمة من الله لا يمكن أن يتصورها سوى ذلك الذي تمتّع بها".[135]

كذلك استغلال الراهبتان (**ميري وسارة**) حاجة عفاف للعمل في الدير لسداد ثمن الجرّة التي كسرتها، فقد كانتا تعتمدان عليها في كل شيء رغم صغر سن عفاف، والتي وجدت في مجيء خالها وأخذها من الدير راحة كبيرة من ذلك العبء.

ولكن أول بوادر الاشتباه بخيانة الرهبان لأهل القرية كانت بعد لقاء ثيودروس مع الهبّاب:" الشيء الذي أثار الكثير من الكلام...هو ذلك اللقاء الغريب الذي تمّ بين الهبّاب و الخوري ثيودورس..فهناك من أشار إلى صفقة أرض..مصالح مشتركة".[136] فالهبّاب معروفا بين الناس بتعامله مع الأتراك، فما هي المصلحة المشتركة بين رجل دين وشخص كهذا. وعندما كان يأتي الدرك ويعيثوا فسادا في القرية لم يكن الرهبان يتدخلوا بل كانوا يختبئون، وهذا ما أثار شك الحاج محمود بهم: "الشيء الغريب الذي لاحظوه أن الخوري ثيودورس طيلة الأيام الثلاثة أغلق باب الدير".[137] بعد أن تأخر الناس

---

[132] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص43.

[133] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص32.

[134] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص59.

[135] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص46.

[136] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص62و63.

[137] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص117.

عن دفع الضرائب، جاء الدرك وقلبوا القرية لمدة ثلاثة أيام ولم يخرج الخوري من ديره، فكانت رسالته واضحة في تخليه عن حماية أهل القرية.

كان جهل أهل القرية واستغلال الرهبان لهذا الجهل أحد أسباب ضياع الأراضي في القرية؛ فقد كان يجب عليهم تسجيل الأراضي بأسمائهم واخراج كوشان،[138] لكنهم لم يفعلوا ذلك خوفا من دفع ضريبةٍ أعلى للدولة العلية، ولثقتهم بالرهبان المعروفين بالزهد، فكانوا يدفعونها للدير وهو يسدد عنهم، لكن خالد لم يعجبه الأمر ولذا عاتب والده الذي لم يخطر بباله أن يحتاج لورقة إثبات ملكه لأرض أجداده؛ وكأن الأرض زوجته فلا يقدر أحد تطليقها منه: "إن هذه الأرض أرضي منذ جد جد جد جدي، والكل يعرف هذا..افرض..أن أحداً جاء وقال هذه الأرض هي أرضي، إذا كنت تقول غير ذلك فهات الكوشان!! –من يستطيع أن يطلقني من امرأتي؟ صاح غاضبا، ثم استلّ سيفه...سأقول لهم هذا هو الكوشان".[139] لكن الذي خاف منه خالد لقيه بعد أن وقعت الأرض بسلطة الإنجليز، فلم يملك الفلاح الكوشان الذي يثبت ملكه: "إذا كانت هذه الأرض لهم فليحضروا الكواشين"،[140] كان هذا ردّ الإنجليز بعد أن اعتدى عميلهم عبداللطيف الحمدي على الأراضي.

غير أن ثمة مهمة أخرى خفية للرهبان حرص نصرالله على إظهارها أثناء سرده للأحداث بشكل تدريجي؛ وهي شراؤهم الأملاك من الفلسطينيين بهدف نقل ملكيتها لليهود. فهم في الكتاب الأول رجال دين يقومون بعبادتهم إلى جانب مساعدتهم الفلاحين بالتعليم وبتوصيل الضرائب للحكومة، لكنهم في الكتاب الثاني في زمن الإنجليز لم يستطيعوا حماية القرية وتصاعد حرصهم على ملكية الأراضي وإنكار كواشين أصحابها الأصليين،[141] وتصاعد هذا الإنكار بعد مجيء الأب **منولي** الذي كان يعادي الناس صراحة، حتى أنه واجههم في حقيقة أنهم مجرد أُجَراء في أراضيهم التي تثبت الكواشين أنها ملك الدير، بل وتحقق الأمر بحكم القاضي بعد أن لم يجدوا أي وثيقة تثبت عكس ذلك.
ولعل كلام الأب **إلياس** خير شاهد على وظيفة الدير بعد أن أرجع الكواشين للحاج سالم: "هذا الدير كأديرة أخرى..لا علاقة لها بالدين، إنها لا تختلف عن الدبابة في شيء..لا يكون له إلا هدف واحد، أن يحصد كل ما حوله".[142]

لقد كانت الأديرة في فلسطين وجها آخر للاستعمار ويدا أخرى للاحتلال، وهذا ما يؤكده التاريخ وما أظهرته وسائل الإعلام لاحقا. فتلك الأراضي التي لم يسجلها الفلسطينيون بكوشان بأسمائهم، سجلت بأسماء الرهبان وفيما بعد

---

[138] الكوشان كلمة تركية koçan وهي عبارة عن وثيقة رسمية لملكية الأرض (صك أميري)، قاموس المعاني
[139] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص33،34.
[140] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص266.
[141] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص284.
[142] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص434.

بيعت لليهود.[143] وقد كُشفت الفضائح والصفقات المشبوهة منذ العام 2004 وحتى 2017، وهي تؤكد تورط الكنيسة.[144]

من الأمثلة السابقة نلاحظ أن الكاتب في أول وصف للرهبان وصفهم بالمحترمين، وهي صفة تضفي الهيبة والوقار لرجال الدين، لكن أفعالهم وتعاملهم مع أهل القرية كشف عن الوجه الحقيقي لهم، خاصة الرهبان اليونانيين، لكن الراهب الوحيد العربي كان إلياس سليم الذي استنكر تصرفات الرهبان الآخرين، وهو الذي أعاد إليهم كواشين أراضيهم.

شخصية المرأة في الرواية

قدم لنا إبراهيم نصرالله في الرواية نماذج عديدة من نماذج المرأة، عكست صورتها الحقيقية في المجتمع الفلسطيني في ذلك الوقت، فهي امرأة أميّة تتزوج وهي صغيرة تعمل في البيت وفي الحقل، تحافظ على حشمتها وشرفها، تحترم زوجها ولا ترفع صوتها، تحترمها العائلة، لم يكن يؤخذ برأيها إن كانت بكراً في الغالب ولكن بعد زواجها تكن لها كلمتها. وكان بعض الرجال ينسب اسمه لها مُفاخرا بها: كـ"نوح أخو خضرة، وخالد أخو العزيزة، وحسين ابن العزيزة"، ولم يُنقص ذلك من هيبتهم أبدا، كان الوطن أثمن ما تملكه فكانت تضحي بأولادها في سبيل الدفاع عنه، شخصية المرأة في "زمن الخيول البيضاء" فاعلة ومحركة للأحداث مثلها مثل الرجل، ومن هذه النماذج:

الأنيسة: عمة خالد، تستطيع وأنت تقرأ مواقفها، أن ترى ذلك الثقل في هذه الشخصية، فكلامها موزون ولا تتكلم إلا لضرورة، صحبتنا في الكتاب الأول والثاني ببعض كلماتها؛ معلّقة على أولاد أخيها في أمور الزواج فقط، لكننا نتفاجأ بها في الكتاب الثالث وقد أصبحت تعلّق على كلام الرجال في الهادية وترشدهم وتوبخهم؛ فعندما سمعتهم يريدون الذهاب لسليم بيك لطلب المساعدة وبّختهم لأنهم يثقون بشخص خائن، وكذلك وبّخت أخوها الحاج سالم لعدم تعلمه من مواقف الزعماء الخونة وجيش الإنقاذ، وشبهت موقفهم بالبدوي الذي أكل التين بعد أن بال عليه.

منيرة: أم خالد امرأة حكيمة وهي تمثل المرأة الفلسطينية الفلاحة البسيطة؛ حرة تصون زوجها وأولادها، وتحرص على اختيار زوجة صالحة لأولادها، من مواقفها المشهودة: كان يوم صلح الحاج خالد مع الحاج صبري؛ حيث تقدمت بصرّة ذهب لتكمل مبلغ الصلح لتحقن الدماء ويعمّ السلام بين قريتيهم. قُتل ابناها (مصطفى ومحمد) على يد الأتراك، وقتل ابنها خالد على يد الإنجليز. فكانت مثالاً للمرأة المبادرة المضحّية الساعية للسلام.

---

[143] موقع المعرفة، "كنيسة الروم الارثذوكس"، https://marefa.org

[144] موقع الخليجية، "الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين.. استعمار يحتاج إلى تعريب"، 22 آب 2017، http://alkhaleejonline.net/articles

العزيزة: أخت خالد، كانت زوجة عبد المجيد (المتعاون مع العدو)، وأم لثلاثة أبناء (فايز، زيد، حسن)، كانت عوْناً لإخوتها خاصة وقت فرارهم من الأتراك، وثأرت لهم بقتلها لزوجها الذي وشى بهم للدرك، وقامت بتربية أولادها دون أن تقبل مساعدة من أحد. صار ابنها فايز من أمهر مصلّحي البواريد، واليد اليمنى لخاله الحاج خالد، لكنه أُعدم هو وأخوه على يد الإنجليز، وبذلك أصبحت العزيزة مثل أمها بفقدها ولدين في حياتها على يد العدو، أما حسين فصار مساعدا لخاله الحاج سالم وهو الذي فجّر برج الصهاينة. كانت العزيزة مثالاً للمرأة المناضلة الصامدة الصابرة والصانعة للرجال.

ريحانة: المرأة الأصيلة الساكنة القوية، والتي أحبت الأدهم كحبها لزوجها، لم تقبل بالخضوع لجبروت الهبّاب ونجحت في إذلاله، كانت من المعجبات بشجاعة خالد –لذلك سمّت ابنها على اسمه– وتمنته زوجا لها، وكانت ممتنة له لأنه سحق يد الهبّاب. اختارت سيف الدين السعدي ليكون زوجا لها بعد إعجابها برجولته –بعد أن فقدت الأمل بالرجال الذين لم يحموها من الهبّاب– لموقفه الرافض لخدمة أخواته في قصر الحمدي، فهي امرأة تمردت على ظالمها وأذلته فكانت مثالا للصمود والشجاعة والقوة الصامتة؛ حيث أن كسرها للهباب كان بصمتها.

سمية: زوجة خالد وابنة البرمكي، استطاعت كسب قلب خالد بعد ملاحقاتها له، اشتهرت بقدرتها على العناية بالحمام، وإعداد الطعام وتذوق الحليب، لكنها كانت جاهلة لدرجة استعانتها بالسحر للإصلاح بين ابنها وخطيبته، فمثّلت لنا المرأة الجاهلة والمتعددة المواهب في نفس الوقت.

صبحية: زوجة الهبّاب الثانية، تستيطع تخيلها وهي تتحرك بسرعة وتراقب ما حولها، فهي تمثل المرأة الحَرِكة، الخاضعة لظلم زوجها، وكانت امرأة طيبة لكن خوفها من الهبّاب أجبرها على فعل ما يريده، فكانت المرأة المظلومة المسلوبة الحقوق.

عفاف: حفيدة الختيار جمعة أبو سنبل وزوجة محمود ابن الحاج خالد، تميزت عن نساء "زمن الخيول البيضاء" بأمرين: أولاهما: تعلمها للغة اليوناينة بعد خدمتها في الدير. وثانيهما: أنها كانت إحدى الرواة الذين استمع نصرالله لشهاداتهم: فها هي تتكلم عن قصة وفاة والدها: "تسألني كيف مات؟ ..فذهبت أمي إلى زوجة نبيل العودة".[145] وزواجها من محمود: "المهم تزوجنا عاد إلى يافا وبقيت في الهادية..".[146] كانت متمردة وصاحبة عزة وكرامة، فلم تقبل مسامحة خطيبها بعد أن أهانها، وصمدت لمدة سنة لم تكلمه، وكذلك بعد زواجهما بعد أن اكتشفت حبه لـ "ليلى" صمتت ولم تخبره أنها تجيد القراءة.

ياسمين: الفتاة التي أُجبرت على الزواج برجل لا تريده، فلم يقبل والدها أن تنتظر خطيبها (خالد) الفراري، ولذا لم تقبل الإنجاب من زوجها، وهذا نوع من التمرد لم يألفه الرجال من زوجاتهم، لكن قاسم–زوجها– قبِله؛ لأنه يعرف أنه كان

---

[145] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص224.

[146] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص257.

السبب في تفريقها عن خطيبها. فعاشت معه جسدا فارغا بلا روح. فكانت مثالاً للمرأة المتمردة، ومثالا للمرأة الوفية لحبّها.

الراهبتان ميري وسارة: مثال للمرأة المهمّشة التابعة للرجل، ليس لهما من الحياة إلاّ الخدمة وإطاعة الأوامر، حتى بعد كبرهما في السنّ لم تتغير تلك المعاملة ولم تحظيا بشفقة الرهبان. عاشتا حياتهما بين أسوار الدير وكأنهما سجينتان، وتخرجان فقط خلف أحد الرهبان في جولتهم في القرية.

يمكننا القول بعد استعراض هذه الشخصيات أن لكل شخصية من شخصيات رواية "زمن الخيول البيضاء" دوْران؛ دور درامي لعبت فيه دورها الذي اختاره نصرالله لتمثله ودور رمزي: فكان خالد ابن الحاج محمود بطل هذه الرواية كان رمزا لكل بطل مجاهد مدافع عن وطنه لم تذكره الرواية، وكان الهبّاب الذي أذاق الناس أنواع الظلم والجبروت رمزا لكل خائن عميل باع وطنه، وكانت منيرة رمزا لكل أم اكتوى قلبها بقتل زوجها وأولادها وهدم بيتها. وهكذا باقي الشخصيات.

شخصية الآخر

بعد أن عرفنا أن رواية "زمن الخيول البيضاء" تجسّد مراحل صراع الفلسطيني على أرضه، فإنها بالمقابل ستصوّر لنا الطرف الآخر في هذا الصراع وهو المقصود بكلمة (الآخر)، ونحن نعرف أن روايتنا جسّدت هذا الصراع على مدى ثلاث فترات من الزمان لذا كان لكل زمن منها آخر بالنسبة للفلسطيني، وبناء عليه سيكون لدينا الآخر (التركي، الإنجليزي، اليهودي) على التوالي، وهنا سنرى كيف صوّر إبراهيم نصرالله هذا الآخر في "زمن الخيول البيضاء":

صورة الأتراك

لقد بيّن لنا نصرالله أن الفترة التي يتحدث عنها في كتابه الأول من الرواية (الريح) هي الفترة الأخيرة من حكم العثمانيين لفلسطين فظهروا بهذه الصورة:[147]

– تجنيد العملاء ومنحهم السلطة والقوة اللازمة للاستبداد:

"تعرف أننا نختار دائماً عدداً من التجّار والوجهاء والمرابين الذين نثق بهم، ليدخلوا في مزاد عام كل سنة، والذي يفوز يدفع لنا الضرائب المترتبة على أهل منطقته مُقدّماً، ثم نمدّه بالقوة اللّازمة لتحصيل ما دفعه..كل ما تريده سيكون

---

[147] نسرين عقلة، "الدولة العثمانية في الروايات العربية زمن الخيول البيضاء نموذجاً"،
"ARAP ROMANLARINDA OSMANLI DEVLETİ "BEYAZ ATLAR ZAMANI" ÖRNEĞİNDE،(SAUIFD) ،2017ArşivCilt 19, Sayı 35: 186.

لديك..أما ما نريده منك فهو إذلالهم، أولئك الذي باتوا يتجرؤون على رفع أصواتهم مطالبين بالانفصال"،[148] كان هذا كلام القائمقام للهبّاب والذي يتضح من خلاله سياسته في إدارة المنطقة، باستغلال العملاء لتسليطهم على عامة الناس، ولقد عرفنا الهباب في الرواية وكيف كان متجبّرا.

–غصب الأموال وجبايتها بحجة الضرائب وبيع أراضي من لا يدفع الضرائب:

"إلا أنّ كل شيء بدأ يتأرجح حين راحت الإمبراطورية العثمانية تتأرجح وبدت مستعدة لأن تفعل أي شيء مقابل الحصول على المال والرجال كمجندِين، فأطبق مأمورو الضرائب على القرى من جميع الاتجاهات. وبات على الناس أن يدفعوا الضرائب لا عن محصولهم وحده، بل عن رؤوس خيلهم وأغنامهم وبهائمهم، ووصل الأمر إلى أن يدفعوا الضرائب عن كل رأس آدمي.." [149] حين دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية لجانب ألمانيا احتاجت لمزيد من الضرائب ولكثير من المقاتلين مما أجبر كثيرا من الشباب على الفرار إلى الجبال والبلاد الأخرى خشية التجنيد، مما عكس الحنق والغضب من رعاياها، خاصة بعد أن أصاب البلاد القحط والجراد الذي خلّف دمارا واسعا في الأراضي فلم يجد الفلاحون ما يدفعونه، وهذا ما لم تتفهمّه الدولة العثمانية وباعت تلك الأراضي والقرى لأشخاص من خارج فلسطين؛ "بعد أن قام كثير من الأتراك ببيع عشرات القرى في المزاد العلني لملاك من سوريا ولبنان بعد أن عجزت هذه القرى عن دفع العشر لسنوات متتالية وتراكمت عليها الديون"،[150] وطبعا شجّع هذا الأمر كثيرا من أصحاب السلطة على استغلال سلطتهم وظلم الناس وإبرام صفقات شخصية لا تدري بها الدولة كما جرى بين الهباب والخوري ثيودروس: "فهناك من أشار إلى صفقة أرض.. مع بدء الفوضى التي راحت تعمّ أرجاء الدولة، الدولة التي هبّت عليها من كل مكان ديونها المتفاقمة والتي باتت تدفعها لمزيد من القسوة، بدءا من فرض ضرائب جديدة وانتهاء باقتياد الرجال إلى حروب لم يعرفوا الأماكن التي تدور فيها".[151]

–التجنيد الإجباري للشباب وإرسالهم إلى أماكن لا يعرفونها مما أدى إلى ظهور الفِراري:

"فجأة ضاعفت الحكومة أعداد الشباب الذين تحتاجهم جنوداً ولم يُفلت من ذلك سوى قلة قليلة، أولئك الذين كان بإمكانهم أن يدفعوا بدلاً للحكومة مقداره ستون ليرة عثمانية ولم يكن بالمبلغ القليل إلا أن ذلك لم يُعفيهم من الخدمة لمدة ستة أشهر في أقرب موقع لقُراهم ومدنهم، أما أولئك الذين لم يكونوا يستطيعون الافلات بمالهم أو فِرارهم فقد كانت القطارات في انتظارهم لنقلهم للخدمة في أماكن لا يعرفون عنها شيئاً".[152] حتى أن كثيرا منهم لم يعد لعائلته؛ فأم الفار التي تزوجها حمدان لم تكن أرملة ولا مطلقة ولكن زوجها لم يعد: "فزوجها غائب منذ عشرين سنة..وهل رأيت أحدا

---

[148] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص27.

[149] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص46.

[150] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص60.

[151] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص63.

[152] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص141.

يعود من حروب تركيا بعد عشرين سنة على غيابه".[153] وكذلك والد ابنة الأرملة صباح الذي هرب من الأتراك إلى البرازيل.[154] وكانت منيرة تحمد الله أن أبقى لها خالد وسالم بعد قتل الأتراك لولديها مصطفى ومحمد: "كان الخروج من زمن الأتراك بمثابة عودة للروح بالنسبة لها ولآلاف الأمهات والآباء الذين عاد أبناؤهم ..لكنها كانت تعرف أيضا أن هناك ألآلاف من قلوب الأمهات التي لم تزل تترقب عودة أولئك الذين لم يعودوا، الذين ابتلعتهم الجبهات البعيدة وشعاب الجوع".[155]

–جشع رجال الدّرك واستغلالهم سلطتهم:

إن تعامل رجال الدرك بقسوة جعل الناس لا يرحبون بهم: "فكل الرجال كانوا ضيوفاً أعزّاء وتُذبح لهم الذبائح باستثناء رجال الدّرك التركي، أياً ما كانت الرتبة التي يحملونها، فهؤلاء كانوا يتصرفون أحياناً على هَواهم، فتمتدّ أيدهم لأي خروف أو سخل يريدون، يذبحونه بأيديهم، ولا يكتفون بذلك، بل يأخذون معهم ما تطاله أيديهم لوجباتهم التالية من حمام ودجاج وديوك رومية".[156]

–الظلم والوحشية والتخريب:

يقول الصحفي نجيب نصّار في الرواية: "لولا الظلم يا شيخ ناصر لما وصلنا إلى ما نحن فيه من الضعف والانحطاط.. كيف أصبحت معاملة الضباط الأتراك للجنود العرب، وكيف أصبح هؤلاء يفرون من الجيش، وبدأت النزعة العربية تستيقظ.. حادثة قيام جمال باشا بشنق ابن فوزي العظم..فها هم العرب يتفككون، ويبقون آلة صماء بيد الأتراك، كما أن الأتراك أصبحوا آلة صماء بيد الألمان الذين يسوقونهم لحملات عسكرية"،[157] لقد بين نجيب نصار الحال الذي يعيشه العرب في ظل حكم الأتراك، حيث إن اجتماع كثير من المشكلات دفعت العرب على الانتفاض على الأتراك، كما استغل جمال باشا ضعف الدولة وانشغالها بالحروب فتحكّم بالعباد كما يشاء: "كانت المشانق التي ملأ بها الأتراك البلاد تملأ الشوارع ..ولن يمضي الكثير من الوقت قبل أن يأتي لها الإنجليز بما تحتاجه من فرائس".[158]

شيء يمكن أن يفعله رجال الدّرك ويقلب حياتها إلى جحيم إلا وفعلوه بعد الضحى بقليل هدأت أصوات كثيرة ... ونادى صوت: لقد رحلوا. فاندفع البشر يتراكضون كلٌّ نحو بيته. لكنّهم، وكما لو أن العالم كلّه توقّف فجأة، وقفوا

---

[153] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص206.
[154] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص208.
[155] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص282.
[156] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص79.
[157] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص136.
[158] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص335.

دهشين أمام الخراب الذي طال كل شيء، ممزّقا أحشاء البيوت وأبراج الحمام وحظائر المواشي والأبقار التي كانت تئنّ بأرجلها المقطّعة وهي تحاول عبثاً الزحف أو الوقوف".[159]

صورة الإنجليز

بعد هزيمة الأتراك مع حلفائها، وقيامهم بتوقيع معاهدة مودروس 1918م، وبموجبها قُسّمت الإمبراطورية العثمانية بين الحلفاء، وكانت فلسطين من نصيب إنجلترا، والتي لم تكن في الحقيقة سوى قناع لليهود مهّدت لتسليمه البلاد، حيث كان الظلم أشد من سابقه:

–التجبّر وظلم الناس:

كان بترسون من البوليس الإنجليزي الذي ارتبط اسمه بـ"الشيطان" وهذا كفيل لتصوّر مدى ظلمه: "فجاة يُشهر مسدسه ويقتل أحد المارة ثم ينقضّ على جسده الغارق في الدم الحار موجها له اللكمات، وحين تصل قوات البوليس..يصيح..يريد اختطاف بندقيتي"،[160] فهو فوق أنه قام بقتل أحد المدنيين المسالمين يقوم بضربه وهو ميت ثم يفتري عليه ليهرب من الحساب، وهذه حادثة أخرى: "قامت دورية بقيادة بترسون باعتراض الشاب فضل الجابي وتفتيشه فوجدوا معه صورة متقلّدا فيها بندقية فأطلقوا النار عليه وقتلوه"،[161] كانت مجرد صورة فقُتل لأجلها.

وبعد اشتعال النار في المستوطنة جاءهم الإنجليز للتحقيق وبعد ضرب وقتل للرجال أخذوا الحاج خالد وسبعة رجال للسجن: "بعد خمسة أيام من الاعتقال والتحقيق والتعذيب في سجن المسكوبية..وصلوا القرية ممزقين تماما".[162]

وعندما استشهد سعد صالح وجاءوا به إلى القرية للتعرّف عليه، وبعد أن فشلت محاولاته في إعترافهم قام باطلاق الرصاص عليه تكرارا: "رأى طفلة تختبئ خلف أمها..اختطفها بيد، في الوقت الذي كان مسدسه مشهرا في وجوه الجميع، حاولت الأم التشبث بابنتها، ضربها بكعب مسدسه، سقطت...وقف بها أمام صندوق سيارة الجيب: هل تعرفينه؟..قرّب وجهها أكثر إلى الجثة، وفي تلك اللحظة فقدت الطفلة وعيها..ثم تركها تسقط أمام قدميه، اندفعت أمها نحوها..تلقت تلك الركلة المفاجئة من قدم بترسون فسقطت على ظهرها...سأعذبكم بهذا طوال حياتكم"،[163] فلم يعرف الإنجليز الرحمة لا لمرأة ولا لطفل.

---

[159] إبراهيم نصرالله، زمن الخيول البيضاء، ص 132

[160] إبراهيم نصرالله، زمن الخيول البيضاء، ص261

[161] إبراهيم نصرالله، زمن الخيول البيضاء، ص 263

[162] إبراهيم نصرالله، زمن الخيول البيضاء، ص280

[163] إبراهيم نصرالله، زمن الخيول البيضاء، ص 306

– فرض الضرائب التعسفية ومصادرة الأراضي من الفلسطينين وبناء المعسكرات عليها:

"بات موظفو الضرائب ينتظرون المحاصيل على البيادر قبل وصولها للبيوت، وزاد الأمر سوءا قيام الحكومة البريطانية بوضع يدها على كثير من أراضي القرى وأحاطتها بالأسلاك الشائكة"،[164] لبناء المعسكرات والتي صار أهالي القرى يعملون بها بعد أن صودرت كثير من أراضيهم.

– تزايد أعداد المهاجرين اليهود:

حيث تم بناء مستعمرات جديدة لهم وبدون سابق إنذار، وتحذير بترسون لأهل القرية بمعاملتهم جيدا: "منذ اليوم سيكون لكم جيران جدد، وعليكم أن تحترموا وجودهم، سيمنع اقتراب أي شخص أقل من مائة متر من الأسلاك الشائكة.. هذه الأراضي ليست لكم..ولذا ليس لأحد منكم أن يحتج على ما يمكن أن تفعله الدولة بما تملكه"،[165]لقد نجح الإنجليز بزرع اليهود في فلسطين واستغلال طيبة الناس فيها.

– الازدواجية في التعامل بين الفلسطيني واليهودي، والحرص على حماية اليهودي ومدّه بالسلاح:

استوطن اليهود في القرية، وبدأت المستعمرة بإطلاق النار على الفلاحين، فذهبوا لطلب الحماية من بترسون الذي قال لهم بغضب: "نحن لا نستطيع أن نرسل دورية للجيش مع كل من يريد أن يحصد حقله"،[166] ولكن حين احترقت حقول القمح جاءهم بترسون غاضبا متهما إياهم بحرقها لتصل النار للمستعمرة.
لقد كانوا حريصين على سلامة اليهود: "لم تكن أمور الثارات تعني الإنجليز سواء أكان عدد القتلى واحدا أو خمسين، كان يعنيهم ألا يكون القتلى منهم أو من اليهود".[167]

كانت المعسكرات تبنى ويعمل بها الفلاحون وتكون مخازن للأسلحة التي تنقل للمستعمرات اليهودية: "كان بعض رجال الهادية.. يرون بأم أعينهم شاحنات المستعمرات اليهودية تأتي فارغة وتذهب ممتلئة بأسلحة وذخيرة".[168] ومع تصاعد وتيرة الاشتباكات ولحرص الإنجليز على سلامة اليهود قاموا بتجريد جنودهم العرب من سلاحهم واستبدالها بالعصي.[169]

---

[164] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص240.
[165] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص259.
[166] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص270.
[167] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص286.
[168] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص451.
[169] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص479.

– خداع الناس بالتظاهر بالرحمة واللين لاستدراجهم:

كان معروفا بين الناس أن "السياسة البريطانية التي حين تُبدي لينها تكون تمارس أعتى أساليب قسوتها"،[170] وكانت هذه سياسة عبداللطيف الحمدي العميل لهم. ولعل خير مثال عليها هو ما فعله بترسون بعد حادثة إطلاق نار على شرطي بريطاني حيث ذهب لإحضار نمر المطيري أحد الشهود في الحادثة: "طرق بترسون باب نمر المطيري..خرجت امرأته، قال لها بلطف أدهشها: إن كان السيد نمر موجودا، فأرجو أن يتفضل ويرافقني لاستكمال شهادته في قسم البوليس. وحين قالت: إنه موجود. قال بلطف أشد: أرجو ألا أكون قد أزعجتكم بوصولي في هذا الوقت المبكر..لم يكونا قد ابتعدا..انحنى بترسون نحو حذائه، متظاهرا بأنه يريد تثبيت رباطه..تاركا نمر يبتعد عدة خطوات..صوّب المسدس ببرود شديد، أطلق النار ..من الخلف..اندفع بترسون نحو جسد نمر النازف يركله.. فأطلق الرصاصة الثانية..وهو يصيح: مت أيها الوغد.مت".[171] الشيء العجيب والنقيض تماما أن بترسون هذا كان شاعرا حيث كان يمضي ليله بكتابة الشعر، وكان أيضا عاشقا للخيل ومن العجب اجتماع هذه الصفات بقاتل وحشي.

– الإعدام لمن يخالف القانون ونسف بيوت الثوار:

"لم يكن قانون الطوارئ الذي أصدره الإنجليز مفاجئا لهم بقسوته.. الحكم بالإعدام أو بالحبس المؤبد"،[172] فقد أعدموا ابنيْ العزيزة فايز وزيد ولم يسلّموا الجثتين لأهلهم إلا بعد خمسة أيام بعد أن علقوهما أمام باب العامود.[173] ونسفوا بيت الحاج خالد، بعد أن عرف بترسون أنه كان وراء العمليات ضدهم.

– تجنيد العملاء وإعطائهم مناصب في الدولة:

وكان منهم الحاج صبري النجار الذي كان يعمل تحت عبد اللطيف الحمدي، والذي كان بدوره يعمل تحت سليم بيك الهاشمي؛ (سلسلة من الخونة)، كان عبد اللطيف الحمدي مع الأتراك وبعد هزيمتهم تحول للإنجليز، هو من أرسل لقتل الحاج محمود، ثم القاضي مسعود الحطاب وتجنيد ابنه لاغتيال الحاج خالد وحين لم ينجح أرسل من يقتل الابن دون أن يجد أحدا يحاسبه: " أحس الحمدي بالخطر الكبير..سينافسه هذا القاضي على الزعامة..وهكذا نصب له كمينا..وحين قُتل ..عادت الثارات تدق البيوت".[174] وكانوا عيونا للإنجليز؛ فسجنوا الحاج خالد بعد وشايتهم عليه: "كان أعوان الحاج صبري وعبد اللطيف الحمدي قد تعقّبوه حتى اكتشفوا مكانه..في السجن وجد نفسه".[175]

---

[170] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص268.

[171] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص263.

[172] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص 304.

[173] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص342.

[174] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص273.

[175] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص285.

–انكشاف أطماع الدير:

وجود الإنجليز المتعاونين ضد الفلاحين كان فرصة للخوري ثيودروس لإنكار كواشين الأراضي، ومع قدوم الأب منولي أعلنها صراحة وأخذ قرار قضائي بذلك حيث بيّن أن أهل القرية لم يكونوا سوى عمّال مأجورين فقط.[176]

صورة اليهود:

بدأ الراوي في "زمن الخيول البيضاء" بالحديث عن اليهودي منذ بداية الاستعمار البريطاني لفلسطين حيث توضَّح من خلال سياسة بريطانيا، أنها لم تكن سوى محطة لتهيئة البلاد ليسهل تسليمها لليهود، لذا سنرى صورة اليهود مضافة له الصور السابقة للإنجليز:

–اتخاذ سياسة الانتشار الصامت الخبيث:

حرص اليهود بتغطية من الإنجليز على عدم اشعار الفلسطينين بوجود كيانهم في البداية ، فكانت تحركاتهم تتم بشكل خفي وهادئ، ليمنحهم الانتشار بمسافات واسعة في الأراضي الفلسطينية واستملاكها وتكوين أرضية ثابتة لهم يحتمون فيها؛ فعندما بنوا المستعمرة لم يلحظها الفلسطينيون إلاّ بعد بنائها: "كما لو أنها سقطت من السماء، استيقظوا صباحا فوجدوها تغطي رأس التل..ببيوتها وأسلاكها الشائكة وأبراجها الخشبية العالية".[177]
وهكذا استمر اليهود في التوسع إلى أن ضيّقوا القرية على من تبقّى من أهلها الذين أجبروهم على الرحيل: "بدأت الهادية تصغر يوما بعد يوم..وتحوّل الدير إلى سحابة من دخان، وعندها أدركوا أنهم يريدون محو القرية من الوجود".[178]

–نشر الرعب بين الفلسطينين بوسائل عديدة:

عندما أسكن الحاج أبوسليم في بيته عائلة يهودية لم يكن يدرك أنها سترميه خارج بيته بعد تمكنها بدعم من قوة الهاجاناه الوحشية، فوجد نفسه بلا بيت: "لم يبق.. سوى العائلة اليهودية التي قالت لنا: إذا ما أردتم البقاء على قيد الحياة فاحملوا ..متاعكم وارحلوا. وإن بقيتم هنا فأنتم تحكمون على أنفسكم بالموت".[179] وهكذا كانت سياستهم التمسكن ثم التمكن.

---

[176] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص408.
[177] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص258.
[178] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص504.
[179] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص477.

إطلاق الرصاص من الأبراج على الفلاحين وهم يعملون في أراضيهم، واحدا تلو الآخر بشكل يومي، مما دفع الفلاحين لنسف البرج، لكن اليهود أعادوا بناءه ليعاودوا القنص بشراسة أكثر، ليصلوا لمن في داخل بيته: "دوّت رصاصة واحدة، أدرك الناس أنها قادمة من البرج، وأمام بيته سقط عادل الحلو. وعلى مدى سبعة عشر يوما لم يتوقف القنص..فلم يعد الناس يجرؤون على الظهور في النهار".[180]

التسلل ليلا لبيوت الفلسطينين وقتل وذبح الناس فيها وبعد انسحاب جيش الإنقاذ خلسة، وهذه شهادة حية في الرواية: "اليهود وصلوا.. قُتل بالبلطات والسواطير..ثم دوّى انفجار بعيد...ولكن أين ذهب جيش الإنقاذ؟..كيف انسحب ولم نحس به، كاللصوص، سلموا البلاد نائمة لليهود ورحلوا..دخلنا بيت محمد شحادة وجدناه ميتا ..قتلوا غزالة نمر وأولادها الستة..كلهم قُتلوا نائمين".[181]

—اتخاذ العملاء والخونة:

كانت هذه سياسة أي عدو اتخاذ الأعوان من داخل المستهدفين، العملاء كان يهمهم المنصب والمال فأينما يكونان يكن ولاؤهم، لذا نرى العملاء الذين عملوا مع الإنجليز استمرت مسيرتهم مع اليهود أيضا، أمثال فوزي القاوقجي الذي أثبت لكل الفلسطينين أنه كان متعاونا خاصة بعد انسحابه بجيش الإنقاذ الذي كان هو قائده، وترك الفلسطينين عزلاء يواجهون وحشية اليهود وحدهم.

نرى بعد استعراضنا لصور الآخر في "زمن الخيول البيضاء" أنه متشابه في أفعاله، فقد مارس أشد أنواع القسوة والقمع والقتل ليتمكن من إخضاع الفلسطيني وسلبه أرضه، وقد يستنكر البعض وضعنا للدولة العثمانية المسلمة مع الآخر مع الأعداء، لكننا وضحنا من قبل أن الأتراك المقصودين في هذه الرواية، هم الذين كانوا في الفترة الأخيرة من الدولة العثمانية، والحقيقة المعروفة أن الدولة العثمانية في آخر زمانها كانت محكومة لغير السلطان العثماني الذي كان مجرد صورة يحكمه جنرالات الجيش والجمعيات التركية الموالية للإنجليز؛ لذا لا نستعجب من توافق سياسات الآخر مع بعضها.

---

[180] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص502.

[181] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص490،488.

المبحث الثاني: الزمان

يعد الزمان أحد المكونات الحكائية التي تشكّل بنية النص الروائي، وهو يمثّل العنصر الفعال الذي يكمل بقية المكونات الحكائية ويمنحها طابع المصداقية، لكن الزمان لا يكتمل إلا بالمكان فهما شريكان لا ينفصلان، ومردّه إلى أن الحركة هي التي تصنع مظاهر الوجود؛ والوجود والزمان مترادفان لأن الوجود هو الحياة والحياة هي التغير والتغير هو الحركة والحركة هي الزمان فلا وجود إلا بالزمان، لهذا فإن كل وجود يتصور خارج الزمان وجود وهمي أو هو لا وجود.[182]

وقد قسم مندولا الزمن باعتبار تعقيده إلى قسمين رئيسيين:

الزمن الاصطلاحي (الطبيعي): وهو العلاقة الزمنية بين الأشياء كالساعة واليوم والشهر والسنة، ويتسم بحركته إلى الأمام، ولا يعود إلى الوراء أبدا.

الزمن السيكولوجي (النفسي): وهو ما يرتبط بتجاربنا وأفكارنا وعواطفنا ولا يقاس بوحدة الزمن الاصطلاحي، فهو مختلف من شخص الى آخر، متجاوزا الحدود الزمانية (الماضي، والحاضر، والمستقبل)، وبالتالي يمكن في لحظة واحدة أن يمتلك الإنسان عدة أزمنة متفرقة. [183]

ويتجلى الزمن في الرواية في قسمين:

1. زمن الحكاية: بما فيها من وقائع وأحداث، يفترض أنها وقعت أو وقعت روائيا على الأقل.

2. زمن الخطاب: والخطاب هو الحاضر التخييلي الذي يقف القارئ أمامه وجها لوجه يحاوره ويقوم على تحليله.

ويمكن تقسيمه إلى (زمن السرد، زمن السارد أو الراوي) يستعين الكاتب به على التسريع والتبطيء، و(زمن الشخصية النفسي)، ويستعين فيه بتقنيات تيار الوعي والمونولوج والتداعي ومنطق الصور والمونتاج وغيرها.[184]

أو يمكن تقسيمه إلى: زمن داخلي ويضم: (زمن الكاتب، وزمن القارئ، والزمن التاريخي)، وزمن خارجي: (زمن الحكاية، وزمن الكتابة، وزمن القراءة).[185]

زمن الحكاية في رواية "زمن الخيول البيضاء": مأخوذ من الذاكرة وهو زمن أحداث الرواية، فقد ذكرنا من قبل أن الرواية تغطي ثلاثة أزمان؛ كانت بدايتها من أواخر الحكم العثماني لفلسطين، ثم زمن الاستعمار البريطاني، حتى الاحتلال

---

[182] مرشد أحمد، *البنية والدلالة*، ص233.

[183] أ. أ.مندلاو، *الزمن والرواية*، ترجمة : بكر عباس، (بيروت: دار صادر، 1997)، ص78،76، (بتصرف). وينظر أيضا، د.مها حسن قصراوي، *الزمن في الرواية العربية*، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسة والنشر ،2004)، ص18.

[184] مها حسن قصراوي، *الزمن في الرواية العربية*، ص48-51.

[185] عبد الملك مرتاض، *في نظرية الرواية*، (الكويت: عالم المعرفه، 1998)، ص179. وأيضا: رابح الأطرش، "مفهوم الزمن في الفكر والأدب"، *مجلة العلوم الإنسانية*، مارس2006.

الصهيوني والذي بدأ بالنكبة سنة 1948. وعند هذا الحدث توقف الكاتب. وقام بتوزيع هذه الأزمان على أقسام الرواية الثلاثة المتمثلة بكتبها :

الكتاب الأول: الريح؛ وتدور أحداثه في أواخر العهد العثماني.

الكتاب الثاني: التراب؛ تدور أحداثه في فترة الانتداب البريطاني.

الكتاب الثالث: البشر؛ بداية غزو العدو الصهيوني لفلسطين وما تخللته من أحداث انتهت بإعلان دولة الاحتلال.

"معجزة كاملة تجسّدت..أمام المضافة..كان الحاج محمود يجلس..ولم يكن هناك ما يفتنهم أكثر من جمال مهرة أو حصان" هذا المشهد الأول من الرواية، حيث يُقحمنا الكاتب في الحدث دون أن يحدد لنا الزمن الذي وقع فيه هذا الحدث، فكأنه يخبرنا أن الحدث أهم من الزمن الذي وقع فيه. لكننا نفهم من مشاهد لاحقة أن هذا الحدث كان زمن الأتراك، وبعد وفاة أمل زوجة خالد، لكن دون تحديد زمن دقيق.

ينتقل الكاتب من زمن(الكتاب الأول) إلى زمن (الكتاب الثاني) من خلال تصوير حدث مريع وكأنها القيامة، فقد أطبقت السماء على الأرض، وغبارا داكنا أحاط المكان والريح تهب بقوة تقتلع كل شيء أمامها مما جعلت الناس يلزمون بيوتهم وكأنها وقعت في فخ جهنمي، وتقلّبت الأرض وتقلّب الزمان، تبعه مشهد مستبق للزمن القادم؛ حادثة إطلاق رصاصة على الحاج خالد. ليبدأ المشهد الأول من الكتاب الثاني بقدوم الحجاج ومن بينهم الحاج خالد.

أما انتقاله من الكتاب الثاني إلى الثالث، فكان بقتل كريم لأبيه الحاج صبري وهي حادثة عظيمة تبين أن علاقة الإنسان بأرضه أقوى من علاقته بأهله، والموت لمن خان أرضه. ويبدأ الكتاب الثالث بوصول الأب منولي للدير.

أما زمن سرد الأحداث في رواية "زمن الخيول البيضاء"، فقد نشر الكاتب الرواية سنة 2007، وكان قد بدأ بكتابتها قبل اثنين وعشرين عاماً تراوحت بين بحث واستماع وتسجيل وصياغة للشهادات، أي الأعوام بين 1985-2007. وبما أن رواية "زمن الخيول البيضاء" من الروايات الحديثة المعروفة بتقنيات المونولوج وتيار الوعي فالزمن المعتمد فيها هو الزمن النفسي المرتبط بأفكار وعواطف الشخصيات، فنجد أن الزمن فيها متشظياً غير منتظم؛ يزرع الكاتبُ القارئ في الرواية وكأنها مشاهد مسرحية، ينقله من مشهد لآخر بدون تسلسل تاريخي ولا ترابط؛ مرة باستباق للأحداث ومرة باسترجاع للذكريات، بين الماضي والحاضر والمستقبل، يشعر القارئ فيها بالتيه المقصود من الكاتب في بعض أحداث الرواية.

من الإفادات الزمنية التي استخدمها نصرالله في "زمن الخيول البيضاء":

- فنجده قد استخدم الزمن بصيغ مختلفة في عناوينه الفرعية في الرواية وقد ذكرناها ضمن عتبة العنوان في الفصل الأخير، ونذكر من هذه العناوين: الليل والنهار، الخطوة والزمن، يوم جديد، الليلة البيضاء، الليلة السوداء، الليل خلسة، أنين في الليل، رصاصة بعد صلاة الفجر..وغيرها، وهو بذلك يظهر أهمية الزمن في التدليل على الأحداث وأثره في رسم صوره في مخيلة القارئ.

- المواسم: موسم الحصاد،موسم الزيتون، موسم الخروف؛ كان يعلّق الناس حياتهم بحسب المواسم، فلا يستطيعون تأمين تكاليف الزواج إلا بعد حصاد الموسم: "هكذا كانت تتم الأفراح، في مواعيد المواسم"،[186] فيكون فرحهم اثنين فرح العرس وفرح الحصاد: "كان موسم الزيتون طيبا هذا العام"،[187] وهذا يعني أن المطر كان جيدا في الشتاء، وأنهم سيكونون قادرين على إخراج ضريبة العشر، وعلى أن بامكانهم تزويج أحد الأبناء؛ كما رتبوا زواج خالد بعد الموسم لكن الأمر لم يتم كما خططوا له: "من الواضح أن السنة ستكون صعبة وأن الموسم..لن يكون على هوانا".[188]

- الفصول: من شتاء وصيف وربيع وخريف، فكلها مرّت في روايتنا وأسقطت دلالاتها على الأحداث:
فعند ذهاب الحاج محمود مع زوجته وابنه لزيارة ياسمين قال: "لم أر ربيعا حارقا كهذا منذ أربعين عاماً على الأقل".[189] المعروف أن فصل الربيع من الفصول المعتدلة فلا يكون الجو حارّا لكن هذا الربيع الذي مرّ على القرية كان حارقاً شديد الحرارة، لم يأت مثله منذ أربعين سنة وهذا يلوّح بحدوث أمر عصيب لا يُحتمل ولعله إرهاص بفسخ خطوبة خالد عن ياسمين وتزويجها لشخص آخر فهذا أمر عصيب لم يحتمله خالد ولا ياسمين، ورافقتهما غصّته مدى حياتهما.
"يتذكر الخوري جورجيو ذلك اليوم الشتائي البارد..كانت المفاوضات طويلة"،[190] ولنا أن نتخيل صورة الخوري مع أهل القرية في جو بارد وماطر الذي يضيف معنى الصعوبة والعناء في إقناعهم. وقد يأتي الشتاء بالخير بعد أعوام من القحط التي اجتاحت المنطقة فيغسل الأرض لترجع لها الحياة، "بعد أعوام رملية، حسم الشتاء الأمر".[191]

- عام، سنة: السنة التي تولد فيها بنت "سنة الخير كلها خير"،[192] هكذا كانوا يقولون استبشارا بمولود الأنثى، لكن "الأعوام الرملية"،[193] أكلت خير البلاد؛ فالرمال غطّت الحقول بعد انحباس المطر لسنوات. خمس سنوات مضت بين موت أمل وخطبة ياسمين، وكان زواج ريحانة بعد سنة من موت الهبّاب، وحنّوك الشاب الغجري قد مر بالهادية قبل عامين من استشهاده في الثورة، وجاء قرار وقف الثورة بعد عشرين سنة من المفاوضات التي لم ينتج عنها أي فائدة لأهل فلسطين مما دفع الحاج خالد للهرب إلى سوريا. ونلاحظ هنا عدم تفريق نصرالله في استخدام الكلمتين بحسب دلالتهما على الخير أو الشر.

---

[186] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص112.
[187] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص59.
[188] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص127.
[189] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص127.
[190] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص43.
[191] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص157.
[192] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص109.
[193] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص157.

– يوم، الأيام (الثلاثاء،الأربعاء، الخميس، الجمعة): يذكر كلمة اليوم مفردة: "ذات يوم سأل خالد أباه لماذا ندفع العشر للدير"،[194] لم يُحدد اليوم لكننا نفهم أنه كان في بدايات الأحداث. " تتذكر منيرة تلك الأيام البعيدة حينما وصلت لهذا البيت"،[195] تسترجع منيرة ذكرياتها لأول أيامها في بيت الحاج محمود. وكان نصرالله يذكر أيام الأسبوع دون إضافتها لكلمة اليوم: "صباح الثلاثاء" وقد تكررت أكثر من مرة، فقد كان في صباح الثلاثاء: صدور قرار الطائفة الأرثوذكسية الانقطاع عن الكنيسة، وقدوم بترسون إلى الهادية مع جثة سعد صالح للتعرّف عليه، وكذلك عندما أعد كمينا للحاج خالد. أما الأربعاء فقد كان يوم وصول الحمامة، وهناك سوق الخميس تكرر ذكره أكثر من غيره:"حملت الريح التي انطلقت من سوق الخميس أخبار الحمامة"،[196] فكانت الأخبار تنتشر من خلال هذا السوق. وكذلك هو آخر يوم في العمل فيفرح الناس للعطلة بعده في يوم الجمعة يوم عيد المسلمين وفيه صلاة الجمعة، وغالبا يكون الزفاف يومي الخميس والجمعة.

– الفجر: يرمز إلى البشارة، المستقبل، التحرر والخروج من الظلمة، استخدم نصرالله هذا اللفظ في مواضع كثيرة: كان موعد استيقاظ الفلاحين للذهاب إلى حقولهم مبكرا، "فجر اليوم التالي استيقظ الحاج محمود"،[197] كانت بداية صداقة خالد بالحمامة "عند الفجر أحس بأنفاس دافئة ..رأى وجهها أبيض".[198]

– الليل: الستر والهدوء والراحة والاختلاء بالنفس؛ اختلى خالد بالحمامة ذات ليل وامتطاها حتى الفجر. استمر حريق المستوطنة سبع ليال.

– الأشهر: آذار،نيسان،آب: "كانت شمس آب قد استقرت في منتصف نيسان حارقة"،[199] تقدّم موعد الصيف وجفاف الأعشاب في فصل الخير–فصل الربيع– إشارة للأيام الصعبة القادمة. وتقلّب الطقس في شهر آذار يُشعر بحالة عدم استقرار في أوضاع البلد.

– المساء: يضفي نوعا من الرومانسية والهدوء، فهو وقت مناسب لبترسون لكتابة أشعاره، ووقت جميل للقاء خالد بياسمين: "في تلك المساءات المضيئة بحمرة شمس الغروب".[200]

قام نصرالله بتوظيف هذه الألفاظ بما يتناسب مع الحدث فيكون الزمن أحد المؤثرات أو خلفية للمشهد، فالليل فيه هدوء ويصلح فيه التسلل لأماكن سرية، أو التسلل لذبح الأبرياء كما كان يفعل اليهود.

---

[194] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص33

[195] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص35

[196] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص28

[197] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص31

[198] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص25

[199] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص126

[200] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص 82

أثر تغيّر الزمان على ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية:

كان لتبدّل الزمن من عصر لآخر أثره في تبدّل كثير من ملامح الحياة اجتماعيا وثقافيا:

—كان للزمن أثره في تغيّر بعض المفردات التي كانت شائعة في زمن ثم تغيرت بتغيره منها:

- ضريبة الشانية: كانت في زمن الدولة العثمانية تدفع لمن يضع فوق رأسه غطاء.
- وُجَاق:[201] كلمة فصيحة لكنها قليلة الاستخدام، وهي تعني موقد الغاز.
- البرن، والبَرْنِيَّةُ : شبْهُ فخّارة ضخمة خضْراء ، وربما كانت من القَوارير الثِّخان الواسعة الأَفْواه . والبَرْنِيَّة إناءٌ من خَزَف.[202]

—تغيّر العملة بحسب الدولة الحاكمة لفلسطين، منها:

- البشلك:[203] وهي كلمة تركية تعادل خمسة قروش، كانت تستخدم زمن الدولة العثمانية.
- مجيدية: عملة عثمانية تساوي 20 قرشا، وسميت بذلك نسبة إلى السلطان عبد المجيد.
- الجنيه المصري: عملة استخدمها الإنجليز في فلسطين بعد إلغاء العملة العثمانية بين عامي 1918-1927.[204]
- الجنيه الفلسطيني: عملة استخدمها الإنجليز في فلسطين بعد إلغاء الجنيه المصري، بين عامي 1927-1948.[205]

—ظهور المقاهي في القرية بعد أن كان الناس يجتمعون في المضافة، فظهرت قهوة "محمد شحادة" وقهوة "شاكر مهنا".

—ظهور الراديو وتحلّق الناس حوله لسماع الأخبار وأغاني أم كلثوم وعبدالحليم وغيرهم.

—انتشار السينما والمسارح في المدن الكبرى، كسينما الحمراء في يافا.

—انتشار الحانات وبيوت الدعارة في المدن الفلسطينية لتلبية رغبات الجنود الإنجليز.

—التنقل بالسيارات والسفر بالطائرة بين المدن الفلسطينية.

---

[201] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص43، وهي نفس الكلمة المستخدمة في اللغة التركية:ocak ، قاموس المعاني

[202] *لسان العرب*، فصل الباء الموحدة، 39/13.

[203] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص38.

[204] http://info.wafa.ps

[205] https://ar.wikipedia.org

الترتيب الزمني

ذكرنا أن إبراهيم نصرالله لم يراع الترتيب الزمني في الرواية، حيث اعتمد على الزمن النفسي للشخصيات كما هو معروف في روايات "تيار الوعي"، لذلك اعتمد على تقنيتي الاسترجاع والاستباق في عرضه للزمن:

تقنية الاسترجاع، (الفلاش باك):

وهي إحدى تقنيات التلاعب بالزمن التي استخدمها نصرالله في "زمن الخيول البيضاء" بشكل كبير؛ والتي تقوم على استحضار الذاكرة والرجوع بها إلى الماضي، مستعيناً بهذه الألفاظ: ذلك، تلك، ذات، منذ،.. مضافة إلى لفظ زمني:

- يخبرنا الراوي في بداية مشهد "انكسر الشر" عن جرح خالد -بموت زوجته أمل- أنه لم يلتئم بعد، ثم يستحضر حكاية زواجه منها: "لم يكن جرح خالد قد التأم.."، فسيترجع الذاكرة: "أحبها ذات موسم غادروا فيه إلى القدس.. بمجرد عودته للبيت أمسك بأحد الصحون وكسره"،[206] فاستخدم الفعل الماضي (أحبها) مع (ذات موسم) نكرة، لكنه لم يحدد أي موسم.

- بعد قدوم الحمامة ومصادقتها لخالد، رجع بذاكرته لبداية علاقته مع الجِمال والخيول: "تذكر خالد ذلك اليوم البعيد ..كان عمره حينها ثماني سنوات.."،[207] فتذكر حين ركب جملا ولم يعرف الكلمة التي تقال لينزل عن ظهره واستمر الجمل في السير طويلا، فما كان من خالد إلا أن رمى بنفسه إلى الأرض.

- يسترجع المختار صبري النجار صورته عندما طلبه خالد للصلح: "كان النجار يدرك أنه انتهى منذ ذلك اليوم الذي وصل فيه إلى تلك الساحة ومسدسه معلّق في عنقه"،[208] فأفعاله الشائنة وعمالته مع العدو ومحاولته قتل الحاج خالد جعلت الناس يبتعدون عنه ولا يقدّرونه.

- ترجع منيرة بذاكرتها ليوم وصولها إلى بيت الحاج محمود وزواجها منه: "تتذكر منيرة تلك الأيام البعيدة..كانت في الرابعة عشرة من عمرها"،[209] وكيف أنها كانت جاهلة لا تعرف الطبخ ولا العناية بالأولاد، وأن الحاج محمود صبر عليها وكان رحيما بها.

---

[206] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص13.
[207] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص25.
[208] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص302.
[209] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص35.

- يخبرنا الراوي بدعوة حمدان لأهل القرية لحضور خطبة خالد وياسمين: "وقف حمدان على ظهر المضافة، وصاح: يا سامعين الصوت..بكره ما حدا يسرح.."، ثم يتوقف الراوي ليرجع يوما للوراء يخبرنا فيه أن الاتفاق بين العائلتين قد تم قبل يوم: "كان الأمر قد تمّ قبل يوم، حيث زار الحاج محمود مع الشيخ حسني..بيت والد ياسمين"،[210] وبعدها يستكمل الراوي حديثه عن العرس وقدوم موكب العروس للهادية.

- استحضار موقف من الماضي: فعندما جاء السعدي لمحاكمة ابنه والتقى زوجته ريحانة وطمأنها على ابنها وبأن عمره أطول من عمر دولة الإنجليز: "إذا ما آمن الرجال أن أعمارهم أطول من عمر الإمبراطوريات، سيعمرون أكثر منها". فأورد الراوي قول والد ياسمين في موقف فسخ خطبتها من خالد المعاكس تماما لقوله، فقال: "لم يكن سيف الدين السعدي يعرف أنه يرد على تلك الجملة التي قالها ذات يوم والد ياسمين وهو يقنعها بالتعقل: عمْر الدول أطول من عمر الناس"،[211] وهو موقف ورد في حدث سابق.[212]

- استحضار الراوي لزواج البرمكي في مشهد زواج ناجي ابن الحاج خالد؛ لموقفهما العجيب ليلة الزفاف، فناجي ترك زوجته وذهب عند فرسه الشهباء، والبرمكي لم يدخل مع العروس إلاّ بعد أن أحضروا له الهريسة.

- استحضار الحاج خالد لموقف نوح زوج ابنته فاطمة: "هل تذكر يا نوح ذلك اليوم.. قلت لي: إنك قد هُزمت..وقلت لك: لا لم تهزم..أنا لا أقاتل كي أنتصر، بل كي لا يضيع حقي".[213] يُذكّر الحاج خالد في هذا الحوار نوحَ بيوم دفاعه عن بقراته.

تقنية الاستباق:

وهي عكس الاسترجاع بحيث يسرد الراوي أحداثا مستقبلية.

- كان مشهد الافتتاح بروايتنا هو "وصول الحمامة" استباقاً للأحداث، فالمفروض أن يكون ترتيبه بعد فقد خالد لزوجته، وقد أخبرنا الراوي موعد وصولها: "ولزمن طويل ظل يهذي: كيف استطاع أن يأخذها...وفجأة وصلت الحمامة"[214] كان فقْد خالد لزوجته مؤلماً لشدّة تعلّقه بها حتى صار يهذي كالمجنون حتى جاءته الحمامة فتعلق بها.

---

[210] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص109.
[211] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص294،293.
[212] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص138.
[213] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص372.
[214] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص21.

- جاء أهل الحمامة وأخذوها معهم بعد أن تعلّق بها خالد، وكان يريد أن يلحقهم لكن ساقيه لم تساعداه، فجاءت البشارة المستقبلية من الراوي: "أما الشيء الذي لم يكن يعرفه، أن الحمامة ..كانت تشرع لأيامه القادمة كل الأبواب".[215] فسترجع الحمامة وترافق خالد لتفتح معه أبواب حياته.
- صوت الراوي يحكي لنا أحداث معارك الثورة مع الإنجليز واليهود، ومنها استشهاد اليوغسلافي: "فأصابته شظية شقّت كتفه الأيمن حتى نصف صدره. لا. لم أر جرحا كذلك في حياتي، لكني سأرى الكثير مثله فيما بعد في ليلة المذبحة"،[216] استبق الراوي الأحداث بإخبارنا عن مذبحة ستحدث، وستكون جراح الناس فيها أشد من جرح اليوغسلافي.
- بعد أن تم تلقيح الحمامة ركبها خالد وانطلق بها، وقد انتابه شعور غريب، لم يستطع تفسيره فيستبق الراوي الأحداث ويخبرنا أنه لن يستطيع تفسيره حتى بعد ثلاثين سنة: "وحتى بعد ثلاثين سنة، حين سيستعيد تلك اللحظة فإنه سيظل عاجزا عن تفسير إحساسه..".[217]
- يستبق الراوي الأحداث في مطلع مشهد "سرّان دفينان"، فيقول: "سرّان دفينان سيمضيان بالهبّاب إلى نهاية غير متوقعة، الأول يسكن بيته والثاني ينتظره في السوق"،[218] فيشوقنا إلى أن الهبّاب ستكون نهايته بِسرّين يطلعنا عليهما في الأحداث اللاحقة. وتحت نفس العنوان بعد أن يقدّم القائمقام الهبّاب لأهل زوجته، يستبق الراوي بالقول أن الأيام مراوغة؛ فالهباب الذي بزغ عاريا من ماضيه سيجد نفسه عاريا على بوابة مستقبله.

المدة الزمنية

تتفاوت أحداث الرواية من حيث أهميتها والغرض منها، لذا كان لمدة عرض الحدث أهمية كبيرة؛ فإن أراد نصرالله المرور السريع على الحدث لجأ لتقنية تسريع الحكي، أما إن أراد الوقوف على زمن الحدث وإشعار القارئ بتفاصيل الحدث فيلجأ إلى تبطيء الحكي:

تسريع الحكي:

والمقصود به المرور السريع على الأحداث دون تفصيل ما جرى بها أو إسقاطها تماما دون ذكرها، ويكون إما بحذف جزء من الزمن أو إعطاء خلاصة سريعة عن الأحداث التي مرت في زمن معين دون تفاصيل، ومن أمثلته:

---

[215] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص31.
[216] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص321.
[217] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص81.
[218] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص90.

– "طوال ثلاثة أيام هبّت الريح.. كأنها القيامة.قال الحاج محمود.. تقلّبت الأرض.. وتقلّب الزمان.. وتصاعد صوت الريح..نهض الحاج خالد.. كان باستطاعة العزيزة أن ترى قامة ضابط إنجليزي"،[219] هذا المشهد الأخير من الكتاب الأول ونلاحظ فيه حذفا للزمن من الفترة التي رحل بها الأتراك إلى فترة مجيء الإنجليز، فليس هناك أيّة تفاصيل عن تلك الأحداث، وكذلك رحيل الحاج محمود ومجيء ابنه خالد الذي أصبح اسمه الحاج خالد، فلم يخبرنا الكاتب كيف مات الحاج محمود هنا، لكنه في مشهد آخر يذكر لنا بايجاز يسترجع فيه قصة قتله من قِبَل عبداللطيف حمدي: "اعترضت مجموعة من اللصوص طريق الحاج محمود..فقتلوه..انتهت تحقيقات الإنجليز.. ضد مجهول. لكن كثيرا من أهل القرية.. أن يديّ الحمدي.. لا تكون بريئة من الدم".[220]

– غياب الحاج خالد في الشام سنة، بعد وقف الثورة دون أن يخبرنا تفاصيل غيابه هناك: "بعد عام عاد الحاج خالد من الشام..عاد حتى دون أن يودعهم.. في المكان الذي وقف فيه قبل عام.. وقف من جديد، كانت الحمامة قد غدت أكثر قربا منه"،[221] فقد لجأ الحاج خالد وكثير من الثوار إلى دمشق هرباً من الإنجليز.

– اختفاء الهبّاب ورجوعه: "اختفى الهبّاب طويلا، وحين عاد كان قد تغيّر كل شيء فيه"،[222] لم يعط الكاتب أي تفاصيل عن اختفاء الهبّاب ورجوعه؛ فقط أفاد أنه كان زمنا طويلا، وقد أثر الزمن على الهبّاب فغيره.

تبطيء الحكي

وهو عكس التسريع؛ ويتحقق من خلال المشهد الحواري، والوقفة الوصفية:

– "ذلك المساء فقد خالد الصبر، نظر إليها، وبدأ بهبوط التلة، دون أن تغادر عيناه قامتها، وصل، لم تتحرك، بدت وكأنها مستسلمة لشيء غريب خارج حدود هذا العالم، اقترب أكثر، لم تتحرك، مدّ يده خائفا نحو عرفها وظلّت ساكنة، لامسه، انحدرت كفّه باتجاه وجهها، نظرت إليه، أصبحا وجها لوجه، وعندما راح الدمع ينحدر من عينيها، فوجد نفسه يبكي معها بصمت."،[223] وصف لنا الكاتب تفاصيل دقيقة للقاء خالد مع الحمامة في مشهد واحد، وفيه استخدم الكاتب الفاصلة، والتي تجبرنا على الإبطاء أثناء القراءة، وتوحي بتعرقل سرعة سير الحدث أثناء توقفنا عندها. وكذلك استخدامه لألفاظ (بدأ، اقترب أكثر، مدّ، خائفا، ظلت ساكنة، لامسه، انحدرت، بصمت)، تفيد إطالة الوقت مع عكس حالة خالد الخائفة.

– "ذات فجر، أشرع خالد عينيه. عاد فأغلقهما. لقد أبصر الحمامة...أيقن أنه في الطريق لكي يفقد عقله، استدار إلى الجهة الأخرى.. نداء غامض جعله يستدير ثانية، إلا أنه لم يجرؤ على فتح عينيه،.. راح يشرعهما ببطء

---

[219] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص182،181.

[220] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص266.

[221] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص343.

[222] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص27.

[223] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص24.

شديد. أغمضهما. وقبل أن يستدير كان يسمع حمحمة أليفة،.. تشبّث بغطائه، بالفِراش، بتراب الحوش، تشبث بجسده خائفا من أن تبعثره المفاجأة. وبهدوء نهض"،[224] نلاحظ الهدوء والانتقال البطيء بين الجمل، واستخدام تلك الألفاظ واستخدام النقطة والفاصلة، وحالة خالد بين التردد والخوف كلها تعرقل سير الحدث.

- حوار الحاج خالد مع مدير مدرسة "الفرندز":

- تلميذ نجيب، ولكن.
- ماذا؟ علّق الحاج خالد الذي لم يتلقّ دعوة للجلوس.
- لا شيء.
- من فوق نظارته..راح المدير يتأمل الحاج خالد من أساسه حتى راسه..ثم قال بصوت كسول أقرب للهمس: نحن مدرسة تبشيرية..ونصلي صباح كل يوم ..
- أدرك الحاج خالد أن حجة المدير أضعف..اعتصر جبينه..التفت للمدير.
- في بلدنا يوجد دير من أيام أبي...
- ولكنكم هناك لا تصلّون في الدير!
- عال. ليصلّ ابني معكم هنا
- ولكن....لا مانع فالكنيسة بيت الله كالمسجد..
- لا رمضان عندنا..
- صحة ابني، كما تراها، ضعيفة..
- تأمل مدير المدرسة الحاج خالد وقال: عجيب. لم تترك لي شيئا أقوله. وبعد فترة صمت طالت قال المدير: هكذا إذن. ثم عدّل نظارته، والتفت إليهما وقال: مبروك"[225]

حوار يشعرنا بطوله ومعاناة الحاج خالد لإقناع المدير بأمر يرفضه مسبقا، واستخدام نصرالله لتلك الألفاظ وحركة المدير كلها تبطء في سير الحدث.

---

[224] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص40.

[225] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص 220.

المبحث الثالث: المكان

يعدّ المكان أحد المكونات الحكائية التي تشكّل بنية النص الروائي، فهو عنصر أساسي لإتمام الحدث فيه، ويتبدل المكان بحسب الأحداث الروائية المتنوعة. وقد بينا في المبحث السابق أن الزمان والمكان مرتبطان معا، حيث يظهر الزمان آثار المكان في الإنسان والطبيعة.[226] وللمكان فائدتان: فائدة جمالية، لتجميل المشهد السردي، وفائدة رمزية لها دلالة ومعنى، وقد تجلّت الفائدتان في الأماكن التي اختارها نصرالله في روايته.

صرّح نصرالله بالمكان الذي وقعت فيه أحداث "زمن الخيول البيضاء" وهو(قرية الهادية) وهو مكان تخيلي اختزل به نصرالله فلسطين؛ فالأحداث التي وقعت في الهادية وقعت في فلسطين كلها، وكأنه ذكر الجزء وأراد الكل. وقد أضاف نصرالله في صفحة الملاحظات في بداية الرواية؛ أن قصة الدير التي حدثت في الهادية هي قصة حقيقية حدثت في قريته، والتي نعرف أنها قرية البريج قضاء القدس. وكذلك كثير من الأماكن حقيقة بما أن روايتنا تاريخية ففيها دلائل من تاريخ المكان.

- الهادية: القرية، الساحة الأكبر للأحداث؛ ففيها نشأ بطلنا خالد وعلى أرضها استشهد، وعلى أرضها داس الدرك العثماني والعسكر الإنجليزي واستقرّ المحتل الصهيوني الذي أجبر أهلها على الخروج منها بعدما قتّل ودمّر وعاث فسادا. كان في القرية حارتان: (حارة الحاج محمود، وحارة الحاج صبري النجار).[227]

لم يكن عبثياً اختيار نصرالله لهذا الاسم، فالاسم يلقي بظلاله ومعانيه؛ فالهادية تدل على الهدوء فهي قرية هادئة، وكذلك أهلها هادئون ومسالمون، يناسبها أن تكون أرضا للخيول البيضاء، وكانت خصبة خضراء وكأنها قطعة من الجنة، لذا اختيرت لتكون أرضا للدير، فكان لجمال المكان أثر في جمالية المشاهد. ولهذا اتخذها رمزا لكل قرى فلسطين، وحرص أن يكون هذا الرمز من وحي خياله؛ ليكون مثالا مثاليا يصلح إسقاطه على جميع القرى.

- المضافة: مكان كبير يتخذه مختار القرية لاستضافة أهل القرية والضيوف، وفيها تعقد الاجتماعات والجاهات والمناسبات المختلفة. فيها زاوية خاصة لتحميص القهوة وغليها. كان الحاج محمود يستضيف الناس فيها، وكانت أول مكان نتعرف عليه في الرواية، في أول مشهد من مشاهد الرواية مشهد وصول الحمامة: "أمام المضافة .. كان الحاج محمود يجلس بجانب ولده خالد، مع عدد من رجال القرية".[228] كانت المكان الذي يقصده رجال الدرك والعكسر، لتحصيل الضرائب أو للتحقيق في أمر ما؛ فبعدما قُتل محصلو الضرائب جاءوا وحشروا الناس فيها: "تحولت الهادية إلى معسكر..سيق ما تبقى من الرجال إلى ساحة المضافة وحشر بعضهم داخلها".[229]

---

[226] مرشد أحمد، *البنية والدلالة*، ص127، (بتصرف).

[227] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص185.

[228] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص: 9.

[229] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص132.

—البيت: مكان راحة الإنسان وأمانه، وهو رمز للوطن فنقول بيتنا الكبير، كان بيت الحاج محمود ومن بعده بيت الحاج خالد أكثر البيوت ساحة للأحداث: فالبيوت يتوارثها الأبناء وتعيش العائلة الممتدة فيها؛ حيث دارت أحداث العائلة وحياتهم اليومية فيه، وفي اسطبله كانت الحمامة والخيول الأخرى، وبرج الحمام الذي بناه خالد من أجل حبّ زوجته سمية للحمام، وفي حوشه لعب الحاج خالد مع أولاده،[230]وفيه أيضا أُطلق عليه النار.[231]هذا البيت لم يعد موجودا بعد أن نسفه بترسون عقابا لتمرد الحاج خالد، وفيه إشارة لضياع البيت الكبير(فلسطين).

وهناك بيت (الحاج أبو سليم) [232] البيت الذي كان يقصده أهل الهادية إذا زاروا القدس، لكن بعد تصاعد الأحداث، وبعد أن أجّر بيته لعائلة مسيحية وأخرى يهودية قامت العائلة اليهودية بمساعدة من الهاجاناه باحتلال البيت كاملا وطرد أهله منه، ولم تستطع قوة إنجليزية استرداده.

—الدير: وجود الدير في الرواية هو أمر حقيقي والأحداث التي دارت فيه حقيقية أيضا بتصريح الكاتب،كانت تقام فيه صلوات المسيحيين وفيه يتعلم الأولاد القراءة والكتابة، وإليه تدفع الضرائب. للدير دلالة رمزية حيث كان يد الاستعمار الخفية؛ فالعدو إذا أراد أن يتمكن من هدفه فيجب عليه أن لا يكشف هويته في البداية، وهكذا كان الدير مكان العبادة والروحانيات وليس له من الحياة الدنيا غرض. بعد قرار المحكمة لصالح أهل الهادية بامتلاكها ظل الدير مغلقا إلى أن حرقه اليهود مع ما حرقوه من بيوت الهادية بعد احتلالها.

—المستعمرة:كانت أول وجود مكاني لليهود على أرض الهادية بحماية الإنجليز، أقيمت بين حقول الفلاحين بين ليلة وضحاها، وكأنها نزلت من السماء وبدأت في التوسع وأكل مزيد من أراضي الفلاحين، كان جزاء كل مَن يقترب منها الرصاص والقنابل. كانت ورماً خبيثاً بدأت ضعيفة وصغيرة وأضحت قوية وكبيرة، حتى عمّ سمّها أكثر المناطق الفلسطينية، ومنها خرجت العصابات ليلا لذبح الفلاحين.

—البرج: كان تابعا للمستعمرة، الجُبن الذي كان معروفا به اليهود جعلهم يبنون البرج من الداخل، وصار نقطة لقنص الفلاحين، لكنهم كانوا أشدّ عزيمة من الاستسلام، فقاموا بتفجيره، لكن إصرار اليهود على إقتلاعهم من القرية جعلهم يبنونه من جديد، فعاد قنصهم لأهل القرية العزّل.

—المعسكر: بناه الإنجليز في (وادي الصرار) على أراضي الحقول التي استولوا عليها لعدم دفع أصحابها الضرائب.[233] وفيها عمل كثير من أهل القرية بما فيهم ناجي ابن الحاج خالد.

---

[230] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص187

[231] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص182،281.

[232] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص477.

[233] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص240.

—الحقول: الناس في القرية فلاحون فكان الحقل مكان عملهم منذ طلوع الشمس حتى غروبها، ومنها يخرج أقواتهم وخزينهم الشتائي، لم يتخلّ الفلاحون عن عملهم أبدا في الحقل حتى مع عمليات القنص اليهودي لهم، حتى خروجهم بلا حيلة من الهادية.

—الجبال: المكان الأمثل الذي كان يحتمي فيه الثوّار ومنه يهجمون على الإنجليز واليهود، وعلى أرضه استشهد كثير من الثوار.

—القهوة أو المقهى: انتشرت المقاهي في فلسطين من زمن الدولة العثمانية، لكنها ظهرت في الهادية بعد الاستعمار البريطاني، وكان في القرية مقهى (محمد شحادة) ومقهى (شاكر)، وأصبح الناس يسهرون فيها بدل السهر في المضافة لكن الحاج خالد كان يعتبر دخول المقهى أمرا يُنقص هيبة الرجل.[234]

—المدينة، جرت بعض الأحداث في أكثر من مدينة منها؛ القدس: عاصمة فلسطين وكانت من المدن المتطورة منذ زمن قديم، كان رئيس بلديتها في زمن العثمانيين (فيضي أفندي العلمي).[235] وفيها كنيسة القيامة وكنيسة يعقوب والفندق الكبير، صار فيها احتجاج القساوسة. وهي مدينة أمل زوجة خالد الأولى. الفالوجة ورفح والناقورة وعسقلان والجليل؛ المدن التي فرّ إليها خالد هاربا من الدرك بعد قتله لمحصلي الضرائب. صرفند، عجور، تل الصافي، البريج،دورا، الظاهرية، بيت حنون، الدوايمة؛ وهي قرى من مدن مختلفة من الرملة والقدس ورام الله والخليل وغيرها. التي وصلها خبر قتل العزيزة لزوجها. من خلال هذا الأمر يطلعنا نصرالله على ثقافة نشر الأخبار على الرغم من عدم ووجود وسائل اتصال ومواصلات سريعة، إذ كان الريح كفيلا بذلك.

يافا: أكثر المدن نصيبا في الحديث عنها في "زمن الخيول البيضاء" لكونها المدينة التي يتوجهون لها أولا عند ذهابهم للعلاج أو للدراسة، ولكونها المدينة التي يعيش بها محمود ابن الحاج خالد وفي شوارعها وساحاتها وأحيائها كان يتجول، فذكر من أماكنها: ساحة الساعة مسرح الاعتصامات والاجتماعات، والذي تغيّر اسمها لساحة الحناطير لكثرة الحناطير التي يتنقل الناس بها، ثم تغيّر اسمها في زمن الإنجليز لساحة الشهداء لكثرة من قتلتهم هناك.[236] ومن مساجدها: مسجد حسن بيك الكبير. ومن أحيائها: حي المنشية وحي العجمي، ومن مدارسها: المدرسة المروانية والمدرسة العباسية والمدرسة الأرثذوكسية والمدرسة الإنجليزية ومدرسة فريز. وكأن نصرالله يقوم بتوثيق هذه الأماكن لتبقى في الذاكرة، وفيه إشارة إلى حجم التطور والمدنيّة في يافا قبل احتلالها.

—المدرسة: كمدرسة النجاح في نابلس: التي درس فيها محمود ابن الحاج خالد الابتدائية، وهي مدرسة بناها المستعمِر البريطاني.[237]

—سجن المسكوبية: في القدس اعتقل فيه الحاج خالد وسبعة من رجال الهادية بعد حادثة إحراق المستعمرة.[238]

---

[234] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص269.

[235] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص89.

[236] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص388.

[237] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص218.

– هناك بعض الأماكن ذكرت في الرواية لكن لم يقع فيها حدث: الصين، بعدما أخذ دار السعادات الحمامة وقد تعلّق قلب خالد بها، ولحزن والده على حالته حاول أن يبحث له مهرة مثلها فلم يجد حتى لو اضطر لاحضارها من الصين.[239] لكن كان ذكرها كناية على بذل الآباء ما بوسعهم لإدخال السعادة في قلوب أبنائهم حتى لو اضطروا للسفر للصين المتعارف على بُعدها بين الناس. قناة السويس: فقد شبه الحاج خالد قرية الهادية بها، لأنه لا بد لكل قرية أن تمر بالهادية لمواصلة حياتها.[240] للدلالة على أهميتها كما قناة السويس.

الأماكن التي ذُكرت في "زمن الخيول البيضاء" كانت مسرحا لأهم الأحداث فيها، فكانت أهمية المكان تنبع من أهمية الحدث، لذا نجد أن نصرالله حرص على تكرار بعض الأماكن، خاصة وأن هذه الأماكن حقيقية ومعروفة في ذهن القارئ، ويمكننا استثناء قرية الهادية منها والأماكن التي بداخلها فقط، حيث حرص نصرالله على جعلها خيالية كما ذكرنا خدمة لمشروعه في حفظ ذاكرة فلسطين، ولإمكانية إسقاطها على كل قرى فلسطين.

كما أن هذه الأماكن الحقيقية تعتبر شاهد حق على الأحداث والجرائم التي جرت في مسرحها، أماكن مدوّنة في كتب التاريخ لم يستطع الصهاينة محوها كما فعلوا بالهادية.

وبما أن حكاية خالد والحمامة هي مركز رواياتنا، وكان مسرحها الهادية؛ لذا حظيت الهادية بالمساحة الأكبر في الرواية حيث تدرّج الكاتب في الإخبار عنها كيف كانت في أوج ازدهارها وخصوبتها، ثم تكالب الدول عليها فأنهكتها وأنضبت خضرتها، حتى أحرقها الصهاينة وضمّوها لمغتصَباتهم.

---

[238] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص280.

[239] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص40.

[240] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص268.

المبحث الرابع: الحدث

مجموعة من الأفعال والوقائع مرتبة ترتيبا سببيا، تدور حول موضوع عام وتصور الشخصية وأبعادها وصراعها مع الشخصيات الأخرى. وتتحقق وحدة الحدث عند إجابة الكاتب على هذه الأسئلة: كيف؟ وأين؟ من؟ ولم وقع الحدث؟ والسرد هو المنظم لهذه الأحداث، وهناك ثلاث طرق لعرض الحدث وسنعرضها أيضا في السرد وهي: الراوي كلّي العلم/ والراوي محدود العلم؛ يستخدم ضمير الغائب في السرد/ الراوي بصيغة الأنا يستخدم ضمير المتكلم.

أساليب نقل الحدث وتصوير الشخوص:

الحديث الداخلي (أحلام اليقظة)، الوصف، الترجمة الذاتية، التأمل، الحلم، الرسائل، الارتجاع الفني(الاسترجاع)، والتكنيك السينمائي.[241]

الأحداث في رواية "زمن الخيول البيضاء" تتراوح بين الحقيقة والخيال، فكما كانت الرواية تعج بأحداث خيالية درامية من وحي قلم الكاتب، كانت بالمقابل تنقل لنا أحداث تاريخية حصلت على أرض الواقع، استخدم الكاتب في نقلها الأساليب السابقة، وكان –في الغالب– العنوان الفرعي في الرواية يشير إلى الأحداث المهمة في الرواية:

الأحداث كلها تدور حول البطل خالد، وتتناول مراحل حياته، ولأن الكاتب أراد لفت انتباهنا إلى أهم تلك الأحداث في حياة خالد وهي حكايته مع الحمامة؛ لذا تصدّر ظهورها كل الأحداث والشخصيات فبدأ بأول عنوان فرعي في الرواية "وصول الحمامة": "معجزة كاملة تجسدت..أمام المضافة، تحت شجرة التوت، كان الحاج محمود بجانب ولده خالد...رأوا في البعيد غبارا قادما، داهمه حس غريب..قال الحاج محمود ذاهلاً: أترون ما أراه؟
لم يسمع جوابا..فوجد أن المفاجأة أخذتهم، عاقدة ألسنتهم. عمّ صمت طويل، لم يقطعه سوى ذلك العدْو المجنون.." نقل لنا نصرالله مشهدا كاملا مستخدما دقة الوصف والتأمل. ثم نجده يذكرها بمشاهد متفرقة بين ثنايا الأحداث حيث يستخدم الكاتب تقنياته في العرض؛ بدأت علاقة خالد بالحمامة بعد موت زوجته أمل التي كان متعلقا بها ثم عوّضه الله بالحمامة وتعلق بها أيضا، لكن سرعان ما استردها أهلها وبعد ثلاث سنوات أرجعوها له، فأعادت له الحياة وفتحت له باب عشق جديد مع ياسمين، لكن قتله للدرك ووقوع الناس في قحط أجبره التخلي عن الحمامة خاصة بعد أن أُجبرت ياسمين عن التخلي عنه، ثم جاء الإنجليز فقاومهم خالد وسُجن وعُذّب ثم فرّ من السجن وعاش في الجبال وهناك جاءته الحمامة مرة جديدة؛ لتكمل معه مسيرة الثورة، ويصبح اسمه مُرعبا للإنجليز فيغدو مطلوبا لهم، وسيحصل الذي يرشدهم عليه جائزة مقدارها خمسة آلاف جنيه، حصل عليها صبري النجار ابن قريته، فحاصره الإنجليز وبعد قتال دامٍ معهم استشهد خالد عام 1939، ليستلم من بعده أخيه الحاج سالم وابنه ناجي، لكن في وقت قد أصبحت النهاية السوداء محتومة.

---

[241] عبد القادر أبو شريفة وحسين لافي قزق، *مدخل إلى تحليل النص الأدبي*،(عمان: دار الفكر،2008)، ص125–128، (بتصرف).

هذا هو الحدث المحوري الذي تتحدث عنه الرواية، يمكننا القول هو مركز الرواية، والذي بُنيت حوله الأحداث الأخرى؛ حول خالد ومن حوله من الشخصيات، وقد استمر طيلة الكتابين الأولَيْن، أما الكتاب الثالث الأخير أكمله أخوه وابنه؛ وفيه كان الإنجليز يستعدون للرحيل وتسليم البلاد إلى اليهود؛ اليهود الذين صاروا في قلب الهادية يقتلون كل من جاء أمامهم بصمت ودون إثارة الشك، ومع تواجد العملاء وجيش الإنقاذ الذي لم ينقذ نفسه، وجد أهل الهادية أنفسهم عراة لا أحد يحميهم على الرغم من استبسالهم في القتال، فكان الحل هو رحيلهم عن الهادية بعد أن أضرم اليهود فيها النار وكأنهم يريدون مسح أي أثر لبشر عاشوا فيها، ليحلوا لهم التمتع في العيش بها، مع كذبة أنهم أصحاب الأرض الأصليين.

الأحداث والتاريخ:

في بداية تعريفنا لرواية "زمن الخيول البيضاء" ذكرنا أنها رواية تاريخية؛ أي أن للأحداث التاريخية التي جرت في فلسطين في تلك الفترة انعكاساً جلياً على السرد، وبما أن "زمن الخيول البيضاء" تخبرنا عن ثلاثة أزمان في ثلاثة كتب؛ نجد أن الكتاب الأول والذي يتناول زمن أواخر الدولة العثمانية، لا يحتوي الكثير من الأحداث التاريخية عكس الكتابين الآخرين، وذلك مرجعه إلى أن مصدر المادة التاريخية التي استقى منها نصرالله مادته الروائية كانت قليلة، حيث كان مصدره الشهادات الشفوية من أشخاص عاصروا تلك الفترة، أما مصادره في الكتابين الآخرين فكانت من الشهادات الشفوية ومن الكتب؛ لذا كانت أكثر. ويلاحظ أيضاً أن الأحداث التي وردت في الرواية هي أحداث مهمة مفصلية في تاريخ فلسطين تجمع أسباب ضياع فلسطين. نورد منها:

- حادثة قيام جمال باشا بشنق ابن فوزي العظم،[242] وكان ابنه من ضمن المثقفين العرب الذين أعدموا سنة 1916، في بيروت ودمشق. يتوافق هذا الحدث سرديا مع فرار خالد من الأتراك بعد قتله للدرك الخمسة.
- دعوة خليل السكاكيني الطائفة الارثوذكسية في القدس لأخذ حقوقهم سنة 1913[243]، وقد روى لنا الراوي هذه الحادثة من خلال إلياس سليم أحد رهبان دير الهادية.
- توظيف بعض الشخصيات المعروفة متل شخصية الصحفي نجيب نصّار، وفضل الجابي والقسام وغيرها وإسقاط دورها التاريخي على أحداث الرواية.
- عرض مسرحية يوسف وهبي (كرسي الاعتراف) تقريبا سنة 1937، حيث كان محمود ابن الحاج خالد من المولعين بالمسرح والسينما، فكان دائم الحضور لمثل هذه الفعاليات الثقافية والتي تدل على نشاط الحركة الفنية الثقافية في

[242] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص 136، ينظر "جمال باشا" ويكيبديا.
[243] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص87، ينظر "خليل السكاكيني" ويكيبديا.

مدن فلسطين في زمن الإنجليز. "كان سعيدا بيافا والحياة فيها...فهناك المقاهي والمسارح والأندية الثقافية...يوسف وهبي، نجيب الريحاني..أم كلثوم..كانت سينما الحمراء في مدخل حي النزهة".[244]

- هجوم الجراد: كانت إحدى الكوارث الطبيعية؛ حيث تسبب في قحط في كثير من المناطق، متزامناً مع رفع الإنجليز لقيمة الضرائب.

- الإشارة إلى ثورة البراق عام 1929، والتي بسببها عُرف اسم بترسون من كثرة تنكيله بالناس.

- إعدام الإنجليز لثلاثة ثوّار ممن شاركوا بثورة البراق: (محمد جمجوم، وفؤاد حجازي، وعطا الزير) عام 1930 في سجن عكا.

- استشهاد الشيخ عز الدين القسّام في معركة يعبد 1935/11/20.

- اغتيال أحمد نايف في حيفا[245] عام 1936[246] وهو خائن قُتل لمساعدته الإنجليز في تعقّب القساميين.

- افتتاح إذاعة فلسطين عام 1936، والتي كانت تنطق بثلاث لغات هي: (العربية، والعبرية، والإنجليزية) افتتحها المندوب السامي آنذاك: (آرثر واكهوب) (1920-1948)،[247] بحضور الحاج أمين الحسيني.[248]

- نسف الإنجليز معظم مدينة يافا القديمة في 1936/6/18، لعدم قدرتها السيطرة عليها بوجود الثوار، والذي أدّى إلى تشريد أكثر من ستة آلاف فلسطيني، وقد بررت الحكومة هذا التدمير بإنشائها شارعين يؤديان إلى الميناء.

- إعلان فوزي القاوقجي وقف الثورة 1936/10/12.[249]

- الإشارة إلى أسماء بعض المجاهدين والشهداء في الثورة منهم: فرحان السعدي خليفة القسّام في الثورة، أعدمه الإنجليز وهو صائم 1937/11/27.[250] كان يقاتل مع الثوار في الجبال مع الشيخ خالد.[251] يوسف أبو درة، عبد الرحيم الحاج محمد، محمد صالح الحمد (أبو خالد)، محمد أبو جعب؛ قاتِل الجنرال أندروز عام1937.[252]

- إصدار قانون الطوارئ الإنجليزي، الذي يقضي بإعدام أو حبس كل من يقف أمامهم أو يخرّب شيئا من ممتلكاتهم.

- قصف الطائرات الإيطالية لمدينة حيفا عام 1941،[253] في أثناء الحرب العالمية الثانية.

---

[244] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص227.

[245] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص306.

[246] موقع فلسطين،"القساميون والعملاء"،2007، https://www.paldf.net

[247] موقع مدار، https://www.madarcenter.org

[248] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص269.

[249] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص336.

[250] وكالة وفا الفلسطينية، http://info.wafa.ps

[251] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص309.

[252] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص313.

–تكوين جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي 1948 والذي ما لبث أن سلّم مواقعه للجيشين الأردني والعراقي، ثم رجع للشمال في الجليل، وكانت له اجتماعات سرية مع قائد الهاجاناه وأول رئيس موساد (جوش بالمون).

–أحداث النكبة سنة 1948، من قتل وذبح ونسف وحرق للبيوت، وخيبة أمل الفلسطينين في القيادات الوطنية ورؤساء الدول والأمم المتحدة.

لقد جاءت هذه الأحداث للإجابة على أسئلة: ماذا كان؟ وماذا حدث؟ ملأ بها نصرالله فضول القارئ عن بعض الثغرات والمسكوت عنه في تاريخ فلسطين، وهي أحداث جوهرية كان من نتيجتها وقوع فلسطين تحت الاحتلال الصهيوني، كما كان فيها إعادة لرسم ذاكرة فلسطين التي شُوّهت في أذهان الأجيال الحديثة، ففلسطين لم تتطوّر على أيدي الصهاينة كما يروّجون؛ بل كانت صاحبة حضارة ومدنية منذ القِدم، تلك الحضارة التي حرص الصهاينة على تشويهها وطمسها لتعزيز صورتهم ووجودهم.

لقد أحيا نصرالله في الذاكرة: أن بريطانيا هذه الدولة التي تدّعي الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وتحاول مدّ يدها للفلسطينين، هي من أعطت بلدهم لليهود، وهي رائدة في الظلم وانتهاك الحقوق والكيل بموازين أهوائها، فيجب أن لا نثق بها. كما يجب أن لا ننسى أن الصهاينة هم سرقوا وقتلوا ودمّروا فلسطين وأهلها، فلا داع لترويج أنهم أولاد عمومتنا وأنه لا ضير من التطبيع معهم.

---

[253] قصف إيطاليا لحيفا، ويكيبيديا

المبحث الخامس: السرد

السرد: هو نقل الحادثة من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية، فحين نقرأ مثلاً: "وجرى نحو الباب وهو يلهث، ودفعه في عنف، ولكن قواه كانت قد خارت، فسقط خلف الباب من الإعياء، نلاحظ هذه الأفعال: جرى، يلهث، دفع، خار، سقط، هذه الأفعال هي التي تكوّن في أذهاننا جزئيات الواقعة، ولكن السرد الفني لا يكتفي عادة بالأفعال كما يحدث في كتابة التاريخ، بل إنه يستخدم العنصر النفسي الذي يصور به هذه الأفعال: "وهو يلهث، في عنف، من الإعياء، في المثال السابق". وهذا من شأنه أن يكسب السرد حيوية، ويجعله فنيًّا.[254]

وهناك آليات لصياغة السرد الروائي الحديث، أهمها:

- شعرية العنوان.
- تفتيت المكان الروائي.
- تحطيم مفهوم الشخصية الروائية باللاشخصية.
- كسر خطية الزمن الحكائي لصالح نسق اللعب الزماني.
- استدراج تقنيات المسرح، والسينما، والصحافة، والأنواع الفنية.
- مباغتة المتلقي وجعله طرفاً في العالم التخييلي.[255]

ونحن نجد هذه الآليات حاضرة في "زمن الخيول البيضاء"؛ فإذا نظرنا إلى العناوين التي ترأست صفحات الرواية نجد أنها قد صيغت بأكثر من صيغة قمنا بذكرها في أسلوب نصرالله في اختيار العناوين، وقد تضمنت على صور فنية تثير إحساس القارئ ومداركه، وتبني عنده صورة متخيلة للأحداث التابعة لهذا العنوان، فعنوان عثرة الحكمة: يشبه الحكمة في الإنسان الذي يتعثر على سبيل الاستعارة المكنية، والذي يثير تساؤلاً عن ماهية هذا الشيء الذي تتعثر به الحكمة. وعنوان أبواب الريح: شبه الريح بالبيت وهنا يتخيل القارئ هذه الأبواب التي قد تُفتح أو تُغلق أو تلعب الريح بها فلا تستقر على حال، وتُنبئ بقادم مخيف.

كذلك تنوع مسرح الأحداث في الرواية وتعددت الأماكن، فنجدها مرة في الهادية ومرة في رام الله، ومرة في المضافة ومرة في البيت، ومرة في الجبل ومرة في السهل..وهكذا.

أما خطية زمن الحكي وكسرها فقد تناولناها في مبحث الزمن في الاسترجاع والاستباق والتسريع والتبطيء، وهي أيضا من تقنيات السينما ومنها المونتاج والمونولوج وغيرها.

---

[254] عز الدين اسماعيل، *الأدب وفنونه*، ص105.

[255] مرشد أحمد، *الحداثة السردية*، ص12.

كثير من الأحداث في "زمن الخيول البيضاء" تباغت القارئ وتقحمه الحدث، يستحضرنا حلم البرمكي هنا، كيف شعرنا بتورط البرمكي وحالته السيئة بعد اعتداء حصانه على الحمامة، لنكتشف في نهايته أنه مجرد حلم.

للسرد أنواع: فهناك السرد البانورامي أو المشهدي أو الموضوعي أو المسرحي: وهو نوع تكون فيه المعلومات المقدمة مقصورة على ما تفعله أو تقوله الشخصيات، ولا تكون هناك أية إشارة مباشرة لما تدركه أو تفكر فيه أو تشعر به.
ونقيض هذا النوع السرد الإخباري: الذي يقوم به الراوي كلّي العلم، والذي يتولى تحليل الشخصيات وتحديد كل ما يتعلق بها من مشاعر وسلوك، دون أن يترك شيئاً للمتلقي كي يكشفه بنفسه.[256]

الراوي العليم: يتميّز هذا الراوي باستقلاله الواضح وبالحرية التي تؤهله لأن يتخذ موقعا مميزا في السرد الحكائي، وهو راو يدرك أدق التفاصيل المتعلقة بعناصر السرد كافة ولا سيما الشخصيات؛ فهو على معرفة تامة بالملامح الداخلية والخارجية للشخصيات، وهو لكي يكون مهيئا لهذه الوظيفة الاستعلائية فإنه يستخدم ضمير الغائب في سرده، فهو راو براني الحكي، له عدسة خاصة يترصد من خلالها الزوايا السردية كلها.[257] ويكون السرد باستخدام ثلاثة ضمائر: المتكلم، والغائب، والمخاطب؛ وسيّد هذه الضمائر في الروايات هو الغائب.[258]

وهذا الراوي نراه في "زمن الخيول البيضاء"، فهو عندما يخبرنا بوصول الحمامة وظهور الهبّاب وزواج خالد ... فهو ينتقل بعدسته داخل الرواية ويرويها لنا مستخدما لفظ الغائب، لكن هذا الراوي يفسح المجال لشخصياته لتتولى عملية السرد فيتحول إلى ضمير المتكلم.

ينتقل بنا الراوي العليم إلى بيت الحاج محمود فيسلط الكاميرا على زوجته منيرة ويروي لنا بصيغة الغائب بعد أن استيقظت منيرة وحدقت في وجه زوجها، ويكشف عن تيار وعيها بحديث نفسها عندما لم تعرف إن كان كبر أو صغر، ثم يرجعنا بوعيها إلى الوراء لاستذكار يوم زفافها، فنقل لنا الراوي أحاسيسها وأحاسيس أختها، ونقّلنا بين المشاهد المتقطعة المتعاقبة بالتكنيك السينمائي والوصف، لقد استعرضت منيرة تلك الذكريات كشريط سينمائي مر أمام عينيها، وكل ذلك وهي داخل مشهد استيقاظ من نومها:
"في الداخل استيقظت منيرة فجأة على غير عادتها، كما لو أن أحدا صاح باسمها. وقفت، تأملت بيتها في العتمة.. حدّقت في وجه زوجها، لم تعرف إن كان كبر أم صغر أم أنه مثلما رأته في يوم عرسها. تذكّرت ذلك اليوم حين رفع الغطاء عن وجهها، كعادة العرسان الذين يرون عرائسهم للمرة الأولى في يوم عرسهم، تذكرت كيف كان من المفترض أن تغمض عينيها خجلا...ولكنها بشقاوة البنت الصغيرة فتحتهما.. تذكرت كيف جُنّت أختها وراحت تقول لها مؤنبة بصمت يكاد ينفجر: يا ويلي. يا ويلي. فضحتينا.سأقول لأبي. فقالت منيرة: إن قلت له شيئا، سأدوخ الآن وأقع وأعملها مصيبة.تذكرت منيرة ذلك بسعادة...ولطالما رددت بفخر: من يومها صارت العرايس يفتّحن عنيهن!!... وقفت

---

[256] محمد صابر عبيد ،سحر النص، من أجنحة الشعر الى أفق السرد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت، 2008، ص: 123
[257] محمد عبيد وسوسن البياتي، رواية ما بعد الحداثة، قراءة في شرفات إبراهيم نصرالله، منشورات ضفاف، بيروت. الطبعة الأولى 2013،ص:63
[258] عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، ص151

منيرة صامتة، وقد أدركت أخيرا أن شيئا آخر هو الذي أيقظها..."،[259] ونلاحظ هنا تولّي الشخصية الكلام عن نفسها بضمير المتكلم بعد أن كان الراوي يرويها بصيغة الغائب.

وفي مشهد آخر عندما كان ناجي في حمامات المعسكر، وجد محفظة فيها نقود فوضعها في جيبه: "وعندما وصل الباب راودته نفسه الاحتفاظ بها. فتح المحفظة من جديد..سمع صوتا..أطلّ ليرى من في الخارج، وفجأة جاءته الصفعة قوية، كان أبوه الحاج خالد هناك أمامه، وقبل أن ينطق أي كلمة كان أبوه قد اختفى. راح يرتجف، غادر الحمامات بسرعة"،[260] ينقل لنا الراوي من خلال هذا المشهد طبيعة النفس الإنسانية الضعيفة أمام المال، الخائنة لمن يثق بها، لكن هذه النفس لا يمكن أن تكون أحد أبناء الشهيد الحاج خالد؛ فالذي يضعف مرة سيضعف مرارا، والذي يخون في الصغيرة يخون في الكبيرة وقد يبيع ضميره، لذلك خرج طيف خالد في الوقت المناسب فشعرنا بالارتباك كما شعرنا بقوة تلك الصفعة بمباغتتها لناجي، وارتجافه خوفا، فنقل لنا الحركة والصوت والمشاعر في لقطة واحدة مستخدما دقة الوصف والخيال، وهكذا مضى بنا في جميع أحداث الرواية.

نستطيع ملاحظة استخدام نصرالله في "زمن الخيول البيضاء" لأكثر من طريقة في سرده للأحداث؛ فقد استخدم المباشر وغير المباشر والمونولوج والوصف والحوار، وراوح بينها لتتناسب مع تاريخية وخيال الأحداث والشخصيات وحركة الزمن فيها وكسر خطيته.

---

[259] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص139،140.

[260] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص446.

المبحث السادس: النسق الثقافي

لم يكن هناك دليل على تأثر واعتزاز إبراهيم نصرالله بموروثه الثقافي، أكثر من انصباغ أحداث الرواية بالعادات والتقاليد والموروث الشعبي من أقوال وأمثال شعبية وأهازيج فلسطينية، فنجد الأحداث التي تتناول عادات الزواج والخطبة وعلاقات الناس فيما بينهم ولغتهم كلها انعكاس من ذلك الموروث الذي يحرص نصرالله على حفظه من النسيان:

—عادة تكسير الصحون لإعلان الشاب رغبته في الزواج لخجله من التصريح بها: "بمجرد عودته للبيت أمسك بأحد الصحون وكسره"،[261] فهذا خالد بعدما رأى أمل لم يطلب من أهله علنا تزويجه، بل بدأ بكسر أطباق أمه الثمينة، وكذلك فعل مرة أخرى عندما أراد ياسمين وسمية، ومثله فعل ناجي عندما أراد الشهباء.

—ذهاب جاهة (مجموعة من الرجال) لطلب البنت من أهلها، وتضييف القهوة، ولا يتم شربها إلا بعد عرض طلبهم: "دارت القهوة، أمسك الشيخ ناصر العلي رئيس الجاهة بفنجانه، وضعه على الطاولة...اشرب قهوتك يا شيخ..نشربها .. ولكن لنا طلبا...وصلتَ يا شيخ...جئنا نطلب القُرب منكم طالبين يد مهرتكم لخالد ابن الحاج محمود...اشربوا قهوتكم".[262]

—عادة زواج البدَل: وهو زواج الرجل من أخت زوج أخته بالتبادل، إحدى العادات الموجودة قديما لكنها قلّت الآن بسبب حرمتها وسلبها حق المرأة في الاختيار.

—كان من العُرف أن ابن العمّ له الأولوية في زواج ابنة عمه حتى لو أرادها شخص ذو إمكانات، كما زوج محمد شحادة بنته لابن عمها بعد أن كان أسعد النسناس يرغبها.

—ومن العادات التي كانت تظلم المرأة، عادة (الغُرّة)؛ "عكس الحرة وهي أسوأ النساء حظاً، إذ تعتبر أَمَة يواجهها الحقد والاحتقار ولا يحق لأهلها أن يدافعوا عنها، أو ينتصروا لها إلا بعد أن تنجب ولدا ذكرا".[263] وقد أعطى الحاج النجّار ابنته (سعدية) للحاج خالد بعد أن عفا عنه الأخير، لكن الحاج خالد أرجعها بعد أربعين يوما وقد أكرمها ولم يعاملها كغرّة.

— لم يكن يُرحَّب بالعريس إذا زار خطيبته لوحده، كما لا يحبب رؤيته للخطيبة قبل زواجهما، فعندما ذهب خالد وأهله لزيارة أهل ياسمين دخلت هي في الطابون حتى لا يروها: "كانت في الحقل حين لمحتهم..راحت تجري.. تسللت خائفة..قفزت عن السور..وسمعت خطوات... فألقت بنفسها في جوف الطابون. حمدت الله أن النار انطفأت من زمن بعيد".[264]

---

[261] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص13.

[262] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص15.

[263] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص289.

[264] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص113.

–الغناء طول طريق الذهاب إلى بيت العروس، كغناء النساء في طريق ذهابهم لخطبة ياسمين:

يا طول الشعر الأسمر من عكا حتى يافا
ومن غزة حتى المجدل من حيفا لـ صفافة[265]

في هذا الغناء توصف العروس بأنها صاحبة الشعر الأسود الطويل، كطول الطريق بين عكا ويافا وبين غزة والمجدل، وبين حيفا وصفصافة.

–امتطاء العريس الفرس وقت زفافه. وهذا أمر لم يقبله محمود واكتفى بالمشي بجانب الفرس. وكذلك العروس تمتطي فرسا أو جملا. "بعد الغداء تقدّم العريس أمام الحمدانية التي تمّ تزينها. وبعد قليل أطلت العروس فوق جمل لا يظهر منها شيء".[266] تقدّم محمود ابن الحاج خالد يوم زفافه أمام الفرس الحمدانية التي لم يقبل ركوبها وقد زُينت، وكذلك عفاف العروس التي لا يظهر من جسمها شيء، جاءت وهي تركب الجمل.

–إخراج الخال للعروس من بيت أهلها بعد تغطيتها بعباءته، وتسليمها لزوجها. فلم تقبل عفاف زوجة محمود الخروج حتى مجيء خالها.

–تدافع الشباب على ربط المناديل في رسن الجمل الذي يحمل العروس لكي ينال شرف تقديم عشاء العروس: "وكلما تقدّم العرس كان يقترب أحد الشباب ويعقد منديله.. وهو يقول: هذه محرمة هاشم شحادة، ثم يأتي آخر...وهكذا يتواصل الأمر..حتى غدت حبلا طويلا".[267] فالشباب يدفعهم آباؤهم لهذا العمل ليغرسوا فيهم روح الشجاعة والكرم، وبعد أن يربطوا المناديل يقوم الشيخ باختيار أحدها ويعلن اسم صاحب المنديل، الذي ينصرف لبيته مسرعا لتجهيز العشاء.

–بعد تناول الضيوف الطعام، يغسل أكبرهم سنّا أيدي الآخرين.[268]

–الاحتفال بالحجاج واستقبالهم بالغناء وإطلاق النار وتزيين الشوارع، كما استقبل أهل الهادية الحاج خالد.

–كان من العُرف أنه مهما كان حجم العداوات بين القرى فإن العدوّ يمر بأمان في حالتين: إذا تعلّق الأمر بأصيلة أو عودة مهرة لها ولدتها إلى أصحابها؛ وهو دليل على علوّ شأن الخيل عندهم. لذلك عندما أرجع خالد الحمامة إلى أهلها كان مطمئنا في الطريق وأن الهبّاب لن يعترض طريقه.[269]

–كان من عادة أهل القرى أن يلزموا الأطفال على العمل في رعي الدواب ما إن يبلغوا العاشرة من عمرهم، وعندما يكبر الطفل منهم قليلا يمسكونه المحراث بعد شدّه بيد الطفل مع حجر لتتقوى يده ويتحكم بالمحراث. فقُوت

---

[265] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص111.
[266] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص256.
[267] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص256.
[268] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص154.
[269] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص75.

العائلات تخرجه الأرض وكان مُلزَما على الجميع المشاركة بتحصيل هذا القوت؛ ولذلك كان من الصعب تخلي الأهالي عن أطفلهم وتركهم يذهبون للدراسة، مثلما حصل عندما أراد الدير تدريس الأطفال. وكانت سمية زوجة الحاج خالد توقظ أولادها للعمل في السهل، والذين كانوا يستصعبون النهوض والعمل أيضا: "هيا انهضوا. لقد طلع النهار..كان هناك سهل شاسع من القمح وقد حان موعد النزول إليه".[270] فيجب عليهم مساعدة أهلهم لحصاد سهل القمح.

- لم يكن وجود الطبيب في القرية أمرا سهلا، لذا كان يلجأ الناس إلى العلاج بالكي -إحراق مكان الألم بحديدة حامية- وهذا ما كان يلجأ له الناس في الهادية: فعندما كان والد عفاف يسوق الأبقار انزلقت بقرة عليه فصار يشكو من آلام في زرد ظهره، فكوته بالنار زوجة نبيل العودة ووضعت حبة حمص وأوراق شجر ولكنه مع الأيام صار ينحني فأخذوه إلى الطبيب الذي استعجب من جهلهم، حيث وجد أن النخاع الشوكي قد انسحب من ظهره وبعد فترة مات. فكانت هذه من ضمن جهالاتهم. وكانوا أيضا يتعالجون بكاسات الهواء والتي كانت مفيدة.

- ومن جهالاتهم أيضا: ذهابهم لأحد الشيوخ لعمل سحر، مثلما فعلت سمية عندما تخاصم محمود مع خطيبته عفاف: "قررت سمية استخدام قوى الغيب لحل المشكلة.. وهناك التقت أحد المشايخ الذي أعدّ لها حجابا.."،[271] فقد ظنت سمية أنها قد تُصلح بين ابنها وخطيبته عن طريق الحجاب.

- ومن الجهالات أيضا: استخدام (الشبّة)[272] لرؤية صورة الحاسد، كانت تقوم بها أم الفار لمعرفة من يحسد ابنها: "فتحضر جمرات وتضعها في وعاء وتقوم برش الشبة عليها..تسِم جبهة الصغير بها...رؤية صورة ذلك الشخص في الشبّة المحروقة"،[273] فكانت الشبّة المنصهرة تتشكّل بصورة الحاسد حسب زعمهم.

- وكذلك الذهاب لقبور الأنبياء والأولياء والدعاء عندها والنذر، كما فعلت أم الفار فذهبت لمقام النبي موسى وقصّت شعر ابنها وذبحت الخروف ووزعته.[274]

---

[270] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص221.

[271] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص245.

[272] مِلْح معدنيّ بلوريّ التركيب، حامض الطّعم لونه أبيض، ومنه أزرق أو بنفسجيّ، يتكوّن من كبريتات الألمنيوم والبوتاسيوم يذوب في الماء، وينصهر بالحرارة، ويُستعمل في الصّباغة وحفظ الجلود. *قاموس المعاني*.

[273] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص211.

[274] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص212.

الفصل الثالث: خصائص الأسلوب

المبحث الأول: الأسلوب

الأسلوب: هو التأثير الخاص لشخصية الكاتب الفنية في المادة التي يتناولها بالتعبير.[275]ولقد تعرفنا في التمهيد لهذه الدراسة على شخصية إبراهيم نصرالله وتأثيرها على إبداعه، فكان شاعرا وكاتبا وناقدا ورسّاما، وكل تلك الإباعات وظّفها في خدمة قضيته الكبرى ومشروعه في حفظ ذاكرة فلسطين. لذلك عندما نقرأ أي عمل لنصرالله نجده مصبوغا بزخارف لفظية ومعان جميلة نشاهد فيها رتوش فرشاته بألوانها وأدق تفاصيلها، وقد حصّنها بروحه الناقدة فأخرجها بكينونة متميزة كأنها أفلام سينمائية. وخير شاهد لتميز أسلوب نصرالله، مما ذكرناه سابقا مكانته بين الكتّاب وحصوله على الجوائز وانتشار أعماله بشكل لافت. وبما أن إبراهيم نصرالله من كتّاب الرواية الحديثة (تيار الوعي) لذا نراه يعتمد على تقنية البنى والتقطيع إلى صور ولوحات مستقلة وعناوين ومنولوج داخلي، والاسترجاع الحدثي والمكاني والزماني واستحضار المواقف أو الشخصية أو اللقطة وتداعيات الصور والأخيلة وكذلك الشعرية والإسقاط التاريخي.[276] وهي أدوات مستعارة من السينما والأفلام، وقد توزّع شرحنا لهذه الأساليب بحسب مباحث الدراسة.

وأبرز هذه التقانات التي استخدمها نصرالله في "زمن الخيول البيضاء":

المونتاج

وهو فن ترتيب اللقطات السينمائية بعد تصويرها لا على أساس الترتيب الذي التقطت به، ولكن على أساس فني وفكري آخر خاضع لمضمون القصة السينمائية. وكذلك عمد إلى أساليب القص السردي المتنوعة مستفيداً من خبراته في رصد الفصول السينمائية، وما تعتمد عليه عملية المونتاج من قطع و وصل بين أطراف الفصول وخواتمها.[277] وتوزيعها رجوعا إلى الخلف تارة وإلى الأمام باتجاه ما قبل خط النهاية تارة أخرى، مضمنا الحدث الروائي لغة الشعر وأنفاس الشاعر.[278] لذا سنرى استعانة إبراهيم نصرالله بتقنيات الاسترجاع والاستباق والحوار في مَنْتجة مشاهده في رواية "زمن الخيول البيضاء":

ففي المشهد الأول يبدأ بوصول الحمامة مستخدما تقنية الاستباق: "معجزة كاملة تجسّدت... أمام المضافة ، تحت شجرة التوت كان الحاج محمود يجلس.. مع عدد من رجال القرية، رأوا في البعيد غباراً قادماً..كان الغبار يتلاشى ويحتلّ مكانه بياض لم يروه من قبل، ظل توهجه يزداد شيئاً فشيئاً حتى بان كله"، ثم ينتقل إلى المشهد التالي (الهبّاب) وظهوره وموقفه مع القائمقام، ثم (انكسر الشر) وفيه مشهد تحسّر خالد على زوجته (أمل) بعد أن خطفها الموت ثم يصوّر

---

[275] إبراهيم فتحي، *معجم المصطلحات الأدبية*، ص29.

[276] حسن عليان، "الرواية والتجريب"، *مجلة جامعة دمشق*، المجلد 23، العدد الثاني (2007)، ص84.

[277] محمد عبيد وسوسن البياتي،*الكون الروائي*، ص60.

[278] سليمان الأوزعي، *الرواية الجديدة في الأردن*، ص21.

مشاهد زواجه منها وفي نهاية المشهد يرجع ليخبرنا بوصول الحمامة، مع أن الترتيب الحقيقي يحتم التكلم عن زواجه ثم وفاة زوجته ثم ظهور الحمامة بعد ذلك مثلما ذكر في المشهد الخامس: "ولزمن طويل ظل يهذي: كيف استطاع أن يأخذها من بين يديّ.. وفجأة ظهرت الحمامة".[279] وهذا الأسلوب يدفع القارئ لمواصلة قراءة الرواية في شوق، للمْلمة أحداثها وفهمها جيدا، وقد يحتاج للرجوع إلى ما قد قرأه ليربط الأحداث معا، وقد يستعين بقلم لكتابة بعض ملاحظاته التي ستنجده في صفحات لاحقة؛ وهكذا يجبر نصر الله القارئ على أن يبقى يقظاً وإلاّ سيضيع بين تلك الأحداث.

بدأ ظهور "الهبّاب" في الصفحة ال12 ثم يتركه، ليعود في الصفحة ال27 الحديث عنه في "عودة الهبّاب" وتوليه سلطة من القائمقام، ثم يتركه حتى الصفحة ال45 تحت عنوان "دم وخنجر" فيذكر تسلّطه على الناس وسهولة قتله أي مخالف منهم، وهكذا استمر نصرالله في مونتاج لقطاته، كما الفيلم السينمائي متنقلا بين المشاهد.

ويربك نصرالله القارئ بحضور وغياب الحمامة وكل مرة لا تكن نفس الحمامة؛ فيبدأ بوصول الحمامة في المشهد الأول في الصفحة ال9، ثم ذهابها مع أهلها في الصفحة ال29، وغيابها عن خالد "طوال ثلاث سنوات" في الصفحة ال39، ورجوعها بعد ذلك لكنها لم تكن الحمامة التي ذهبت؛ "وأنها لا بد ابنة فضة"، هنا في الصفحة ال47 يكتشف القارئ –إن كان يقظا– أن المهرة التي عرفناها في المشهد الأول كانت فضة وأن الحمامة هي ابنتها. ثم يأخذها خالد ويردها لأهلها، وبعد سنوات يرجعونها له وهو في الجبال: "فجأة أطل رأسها من بين الأشجار"،[280] لكنها أيضا لم تكن الحمامة بل ابنتها، وهي التي سترافق الحاج خالد في جهاده. صحيح أن القارئ يشعر بالبعثرة بين هذه اللقطات، ولكنه في نفس الوقت يتشوق لاستكمال المشاهد كلها لتَّضح له الصورة كاملة، دون أن يصيبه الملل؛ فالمشاهد ممتعة وفيها حركة على الرغم من طولها.

كان خالد في الجبال يقاتل اللإنجليز واليهود، عندما أرجع السعادات الحمامة له، والمشاهد من الكتاب الثاني كلها متوافقة مع هذا الزمن، فجأة تجد نفسك في مشهد –يأخذك إلى الوراء لزمن الأتراك– وضِع بين تلك المشاهد؛ في مشهد يروي ما حدث بعد فسخ خطبة خالد من ياسمين، وإرجاعه الحمامة لأهلها ومطاردة الدرك له: "وقف محمد شحادة ..أمامه..وقال له: سنعود للهادية معا، الآن.
وماذا عن الأتراك!
الأتراك هناك أقل.. وكما لو أن خالد كان ينتظر ذلك ..نهض..وسار معه"،[281] فالحوار من وقت فرار خالد زمن الأتراك، لكن المشهد بعد رجوع الحمامة له وهو في الجبال زمن الإنجليز.

---

[279] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص21.
[280] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص332.
[281] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص335.

وفي مشهد "لعنة الاسم": يطلعنا الراوي على حوار البرمكي مع ابنه غازي، ثم يرجع الراوي للوراء ليخبرنا عن حكاية البرمكي مع اسم غازي: "نادى البرمكي: غازي!!

وحين أطل ولده ملبياً: حاضر يابا.

قال له: أتمنى لك عروسا كهذه، وأشار إلى الحمامة.

فردّ الولد بحسرة: ومن أين آتي بواحدة مثلها يابا؟!

كانت حكاية البرمكي مع ولده واحدة من حكايات الهادية الكبيرة..."،[282] ثم يقص الراوي الحكاية كاملة، جاء هذا المشهد بعد مشهد التعريف بالبرمكي وأحلامه المتعلقة بالحمامة، فكان المشهدان مرتبطان إلى حد ما،دون ارتباطهما زمانيا، كما نلاحظ استخدام اللغة العامية في الحوار هنا.

وفي مشهد تدمير قافلة الإنجليز المحمّلة بالسلاح لإمداد المستعمرة اليهودية، تحت عنوان: "وصرخ:وجدتها!"؛ أعلمنا الراوي أنه لم يكن عند الفلاحين ألغاما لتدميرها، مما حملهم للتفكير بطريقة أخرى، وبعدها نقلنا إلى الخطة ولم يبين ما هي الطريقة ومن الذي صرخ، ثم انتقل لأحداث المعركة وانتصار الفلاحين فيها، وتعجّب محمد شحادة من هذا الانتصار ومن هذه المادة، هنا يرجع الراوي للمشهد الذي قفز عنه، ليكمل حديثه فلقد كان يتحدث لبيب لأهل الهادية حتى رأى أم الفار تجرف الرماد فصرخ: وجدتها، ثم قامت النساء بحمل الرماد إلى مكان مرور القافلة طوال الليل.

لم يراع نصرالله الترتيب هنا أيضا ليثير فضول القارئ وتساؤلاته عن الصارخ وعن المادة التي وجدها، فكان تركيبه للمشهد موفقا.

"على التل بعيدا، وقف خالد إلى جانب ريح، محدقا في البيت، حتى تسللت خيوط الفجر الأولى. كان الغضب يرتع في جسده، وقد حوّله إلى سرب وحشي من جراد، سرب يودّ لو يهبط من الأعلى ويجتاح كل ما في طريقه، تاركا خلفه الخراب. وحينما خيّل إليه أنه رآها تخرج من بوابة الدار وأنها وقفت وحدّقت في الاتجاه الذي يقف فيه وظلت ساكنة؛ استدار، ممسكا برسن ريح، معذّبا بخطواته المجروحة التي تمضي به لبعيد لم يعرفه من قبل".[283] يصوّر نصرالله هذا المشهد بكاميرته من بعيد: خالد وهو غاضب جدا يقف على التل مع حصانه ريح وقت الفجر، بعد أن سمع أن ياسمين ستتزوج، فرآها تخرج من بيتها لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا إلا الرجوع وهو محمّلا بجرح العاشق الذي سيرافقه مدى حياته. صور لنا حالة غضب خالد بلغة شاعرية وكأنه سرب من الجراد المتوحش الذي يترك ما خلفه خرابا، لكنه أمام هذا الغضب استدار ورجع خائبا مجروحا، يستعين نصرالله لنقل الإحساس بها المشهد بوقت الفجر الذي يدل على الأرق وعدم النوم فالغضب والحزن لن يجعلا خالد يستسلم للنوم، كذلك وقوفه على التلة بعيدا نفهم منه الترقب والحذر، فصحيح أن خالد غاضبا جدا لكنه ليس أحمقا ليقوم بعمل يسيء لياسمين، والقارئ يرى هذا المشهد وكأنه أمام شاشة سينما.

---

[282] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص56.

[283] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص151.

نقل الحالة النفسية لريحانة بوصف دقيق: "أما ريحانة فقد انزوت في علّيتها..وكل ما كانت تحس به هو انتظارها له، انتظارها لرصاصة تمزّق جبهتها..طوال ليلات ثلاث، ورغم أصوات الريح المجنونة، كانت تسمع خطواته تقترب..تتوقف طويلا..وفجأة تسمعها تبتعد.. في اليوم الثالث، أشرعت.. الباب قليلا، حدّقت في الخارج..لا أثر لأي غبار.. بنيّا مائلا لاحمرار غريب.. رأت مسدسه.. ملقى كما لو أن المسدس هو القتيل..لم تدر ما الذي يعنيه.. أشرعت الباب أكثر، انحنت، أمسكت بالمسدس، قلّبته، حيّرها حجم الموت الذي.. يختبئ في قطعة باردة من المعدن المسود، ولوهلة أدارت الفوهة.. وحدّقت داخلها، فلم تجد سوى العتمة. الموت هو العتمة وفي العتمة يعيش. جمعت نفسها من جديد.. بدت لها الدرجات أنها تنتهي هناك في السماء. أفزعها أن تواصل الهبوط، أفزعها..تجمّدت بين مكانين.. وجود المسدس في يدها أعادها من تبعثرها.. حركت قدمها بهدوء، خائفة من أن تتعثر.. وعندما لامست صلابة الحجر تشجّعت.. وواصلت الهبوط.."."[284] نستطيع أن نشعر بالخوف الشديد من الموت عند ريحانة، وصوّره الكاتب في المسدس الأسود؛ اللون الأسود الذي يحمل معنى الحزن والظلام والحداد عند الموت، وصوره أيضا في فتح الباب قليلا، في وقت كان صوت الريح شديدا؛ مما يزيد من شعورنا بالخوف، مع صوت خطوات الهباب الغليظ وتردده اقترابا وبُعدا أمام الباب، وهو بدوره ينقل لنا حالة الهباب النفسية المهزومة أمام الحب، الكاميرا تتنقل مع الكلمات من الباب إلى الخارج إلى الغبار ولونه الغريب ثم المسدس فالهباب ثم داخل فوهة المسدس، وكأننا نبحث فيه عن الموت المختبئ داخله، مع تقليبه ليدلل على الحيرة والضعف والتبعثر خوفا من القادم، وفي نزولها على الدرج بحذر يزيد من توترنا أكثر خوفا من خروج الهباب؛ دقة الوصف وصراع الشخصية الداخلي والأصوات المرافقة والألوان أخرجت لنا مشهدا سينمائيا رائعا.

وفي دقة التوصيف في هذا المشهد باستخدم ألفاظا دقيقة المعنى والشاعرية: "وتحت شمس ذلك الضحى راح خالد يتتبع قطرة عرق انبثقت من جبين (ريح) التمعت، وبقيت هناك أشبه ببلورة، أحس خالد أنها تتأمل الجهات الأربع قبل أن تقرر في أي اتجاه تمضي، وللحظة خاطفة رآها تتجه للأعلى قليلا، نحوه، ارتبك، وفجأة أخذته قطرة العرق إلى أعماقها، حيث الضوء الذي ما لبث أن بدأ يتلاشى وحلّت هناك في قلبه عتمة قاسية مثل قطعة فحم".[285] المشهد في وقت الضحى، كان خالد وأهله ذاهبين لزيارة ياسمين، فيصور لنا الكاتب الحالة النفسية لخالد وقد أصابه التوتر خاصة وأن الموسم ينذر بعدم وفرته مع وجود تلك الشمس الحارقة وقت الضحى، والتي يجب أن تكون أقل حرارة في وقت كهذا، فكان خالد يدقق في قطرة عرق ملتمعة من جبين ريح، فشبهها الكاتب بالإنسان الذي يتوقف ليقرر جهة سيره، فالمنطق يقول أن هذه القطرة ستسقط لكنها اتجهت للأعلى وهو ما ليس متوقعا مما أربك خالد المحدّق في أعماقها، إلى ذلك الضوء اللامع الذي يرمز للأمل، لكن الضوء تلاشى فانعكس الظلام على قلبه وأصبح كقطعة الفحم السوداء لقد ضاع الأمل. يمهد لنا نصرالله في هذا المشهد لما سيَؤل له حال خالد مع ياسمين؛ فالعشق الذي ينير قلبه سيصبح أسودا إذا ما تركته، وهذا ما حدث فعلا.

---

[284] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص174،175.

[285] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص127.

وبما أن الزمان والمكان يلتحمان التحاماً لا يقبل الفصل، فليس من المستغرب إذاً أن تكون للقصص والرسم وجوه وقيم متقاربة ضمن أبعادهما المختلفة. فالزاوية التي يرى منها الفنان المنظر الذي يرسمه، تشبه وجهة النظر عند الكاتب، والأبعاد الفعلية للوحة بالنسبة إلى الأبعاد الفعلية للمنظر المرسوم يمكن أن توازى بالمدة الزمنية للقراءة بالنسبة إلى موضوع الرواية.[286] فكان للصورة الدور الأكبر في رواية ما بعد الحداثة، فيُعمل السارد ألوانه وخطوطه ومعادلاته التشكيلية سرديا للانطلاق بحكايته.[287]

يمكن أن نشاهد كثيرا من تلك اللوحات الفنية في مشاهد الرواية، سيما وأن إبراهيم نصرالله هو فنان تشكيلي أيضا. نقف مع هذا المشهد في وصف ياسمين: "حين أطلتْ، كان وجهها مضاء بحمرة الخجل وانعكاس الألوان الحريرية التي تغمر ثوبها السكري، الثوب المزيّن بسنابل حريرية حمراء وزرقاء، وعلى طرفيّ فتحة الرقبة كانت هناك أغصان بنفسجية تتماوج لتغطي فتحة الثوب تماما. وكان غطاء رأسها السكري المطرزة أطرافه بنعومة تجمع ألوان الثوب كلها، يجعل طلتها أكثر اكتمالا.."."[288] لقد شاهدنا لوحة تشكيلية بكل تفاصيلها ودقة ألوانها؛ لقد وصف وجهها وانعكاس الألوان عليه فهي بيضاء الوجه مضاءة، خجولة، تلبس لباسها التقليدي المطرز مع الغطاء، فأخذنا الكاتب بتدرج مع عدسة كاميرته لملاحقة تفاصيل ياسمين، وكأنها ماثلة أمامنا.

وكان استخدام نصرالله الألوان في مشاهده للدلالة على الحالة التي تعصف في المشهد سواء للشخصيات أو الجو المحيط أو لما سيؤل له الحدث، يمكننا ملاحظته في كثير من المشاهد منها: "راحت يد البدوي تُطبق على يد الهباب رويدا رويدا. أحس الهباب بشيء مختلف، مفاجئ. التمعت في عينيه ثانية صورة الأدهم. همس لنفسه: رؤيا سوداء تطلّ مرتين في يوم واحد. فأل شر"،[289] من المعروف دلالة اللون الأسود وأثره على نفسية الإنسان فهو رمز للحزن والتشاؤم والقوة أيضا، في هذا المشهد يجتمع معنى القوة والتشاؤم؛ فالبدوي والذي كان في حقيقة أمره خالد ومعروف مدى قوته، هذه القوة جعلت الهباب يتذكر الأدهم حصان ريحانة الأسود، فسيطرة الأسود وقوته على الهباب (خالد والأدهم) أسكن التشاؤم في نفس الهباب وأنذر بالشّر القادم.

وكما وظّف نصرالله الألوان في لوحاته فتصوّرها القارئ كلوحة تشكيلية، أيضا أسمعه نصرالله صوت وموسيقا هذه اللوحات: "في الطريق مرّوا بحقول الذرة، أدركوا ما يحدث، أدركوا أنها لم تعد تنتمي لخضرتها المعتادة في مثل هذا الوقت، أما خالد.. كان يسمع حفيف أوراقها، وحيّره أنه لم يكن يسمع تلك الموسيقا التي كاد يمسك بها..حيّره أن الصوت كان أقرب لمرور ريح خماسينية بنوافذ مغلقة بإحكام، واكتشف للمرة الأولى أن للموسيقا ألوانها، فهو يسمع موسيقا صفراء لا تمتّ بصلة لتلك الموسيقا الخضراء التي كان يمتلئ بها"،[290] كما استمع خالد لحفيف الأوراق استمعنا له، وخاصة عندما

---

[286] مندولا، *الزمن والرواية*، ص70.

[287] محمد عبيد وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة*، ص103.

[288] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص128.

[289] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص166.

[290] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص126.

قارنها لنا بخفيفها الأخضر، فاستخدم اللون والصوت ومجازية اللغة ليعرض لنا خلفية هذا المشهد السينمائي، وهي مناسبة لحدث ذهاب خالد وأهله لقرية خطيبته ياسمين، التي لن تكون له كما أنبأنا به المشهد.

وعندما ذهب الحاج سالم إلى المحامي سليمان المرزوقي من أجل مشكلة إثبات الأرض مع الدير: "سيكون هنا في الثالثة والنصف تماما، ما عليكم سوى أن تراقبوا عقارب هذه الساعة.. تحوّلت مراقبة ساعة الحائط إلى عذاب حقيقي.. وكما لم يحدث مع البشر الذين ينتظرون بلهفة منذ اختراع الساعة، وتكتكات عقاربها، راح ذلك الصوت الواهن المنسيّ في العادة، يتحوّل إلى طبول يتصاعد إيقاعها شيئا فشيئا باحثا عن لحظة انفجاره. كيف يمكن للساعة أن تتحول إلى قنبلة، ولا يكون لهم إلا أن يربطوا أنفسهم إلى جوارها بكل هذا اليأس؟!"،[291] انتظار الحاج سالم وأصدقائه للمحامي، لتوكيله في مسألة مصيرية جعلت أعصابهم متوترة، لدرجة أن صوت الساعة أصبح كصوت القنبلة المؤقتة للانفجار، فكان الصوت عاملا لتخيل حالتهم، وخطورة الموضوع الأرض.

المنولوج الداخلي

أي الحوار الداخلي؛ حوار الشخص مع نفسه، وهي تقنية للغوص في داخل الشخصية وما يدور في عقلها، فيطلعنا الكاتب عليها، للإحاطة في أبعاد شخصيته. وقد يكون الحوار مباشرا؛ إن كان الحديث بصيغة المتكلم، أما إن كان بصيغة الغائب أو المخاطب؛ فيكون غير مباشر:

- وقف الحاج خالد أمام قبره الذي حفروه له بعد أن أكد الأطباء لعائلته أنه سيموت بعد أن أطلق عليه الرصاص وظنوا عدم نجاته، وقف يتأمله ويتحسس جسده ويبكي ويقول لنفسه: "أهذه هي الحياة الجديدة التي يقولون أنها تكتب للإنسان.. اتركوا ذلك القبر لي..".[292]

- دخل الهبّاب الغرفة على ريحانة وقد كانت نائمة، فنظر إليها مفتونا بجمالها وسكونها، فقال لنفسه: "هل كان عليّ أن أطيع أحاسيسي".[293] يعاتب الهباب نفسه لأنه أطاع أحاسيسه وعشق ريحانة، وكأنه يقول كان يجب علي أن أعاملها كما عاملت غيرها.

- وهذا بترسون يصفع جبينه بقوة بعد أن علم أن الحاج خالد هو مدير العمليات ضد الإنجليز، مخاطبا نفسه: "أي غبي كنت حين لم أطلق عليه النار".[294]

---

[291] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص410.

[292] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص283.

[293] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص105.

[294] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص307.

– صوت الراوي الذي ينقل لنا شهادته عن الثورة، ينقل لنا حواره مع نفسه وقت الحدث: "وكأنني كنت غائبا عن الوعي وصحوت فجأة، فقلت كيف نسيت؟! ودبّ الرعب في أوصالي!!".[295] كان ينقل أحداث استشهاد قاسم زوج ياسمين الذي كان يقاتل مع الحاج خالد، فقد نسي الشاهد علاقة قاسم بالحاج خالد، وكأنه غائب عن الوعي لكنه تذكر وعندها ارتجف رعبا.

– يتكلم الحاج خالد مع نفسه بعد استشهاد قاسم وتحتّم عليه إرجاع جسده لعائلته، فكان يجب عليه أن يواصل سيره حتى بيت الشهيد الذي تقطن فيه ياسمين، لقد كان أمرا ثقيلا أن يراها مرة أخرى حتى أنه أصبح يهذي بالغناء الذي كانت النسوة تنشده في طريقهم لخطبة ياسمين له.

– وعندما نظر الحاج خالد للحمامة بعد دخول عربات الإنجليز للقرية، كان يريد أن يقول لها شيئا يحسه، لكنه لم يستطع تحويله لكلمات.

– حديث ريحانة مع نفسها بعد أن فكّرت بالزواج من خالد، لقد حلمت كثيرا حتى وقفت مواجهة نفسها بالكفّ عن ذلك.

البِنيات الأسلوبية

حرص إبراهيم نصرالله على بناء أعماله السردية بعدة أساليب لإغناء نصه وتوظيف ما أمكنه من التقانات للحصول على أعمال متميزة، تشهد لها تلك الجوائز وذلك الحضور البارز على الساحة الأدبية؛ وكان من بينها استخدامه للبنيات الأسلوبية التي تتشكل من ثلاث بنى، وهي: بنية الأحلام وبنية الرسائل وبنية المفاجأة.[296]

بينية المفاجأة

من خلال دراستنا لأسلوب التكرار في رواية "زمن الخيول البيضاء"، استوقفنا حجم التكرار لهذه الكلمة ومشتقاتها، ليتبين أن هذه إحدى أساليب نصرالله في بناء سرده، ولا يخفى علينا تأثير المفاجأة على الإنسان سواء أكان هذا الإنسان هو إحدى شخصيات الرواية أو كان القارئ نفسه.

تصاغ بنية المفاجأة بضمير المتكلم الذي يتلقّى الصدمة، بينما تكون كاميرا الراوي العليم تتابع خطوات الشخصية وتتحكم بها بما يتناسب مع المشهد، بالإضافة إلى التقنيات الأخرى التي لا غنى عنها في أي مشهد، وللّغة الشاعرية التي تصيغ آثار المفاجأة بشكل واضح، ومن أمثلته:

---

[295] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص323.

[296] محمد عبيد وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة*، ص115، (بتصرف).

– في المشهد الأول من وصول الحمامة يباغتنا نصرالله بأول مفاجأة في الرواية: "معجزة كاملة تجسدت..كان الغبار يتلاشى ويحتل مكانه بياض لم يروه من قبل.. لم يكن هناك ما يفتنهم أكثر من جمال مهرة..قال الحاج محمود ذاهلا: أترون ما أراه؟ لم يسمع جوابا.. فوجد أن المفاجأة أخذتهم عاقدة ألسنتهم"،[297] رأينا أثر المفاجأة على الحاج محمود الذي بدا ذاهلا، وعلى رجال القرية الذين عُقدت ألسنتهم أمام هذه المفاجأة أمام المعجزة.

– وعندما رجعت الحمامة لخالد، بعد انتظارها لأكثر من ثلاث سنوات،كانت مفاجأته كبيرة بحجم شوقه لها: "ذات فجر أشرع خالد عينيه عاد فأغلقهما، لقد أبصر الحمامة.. أدرك أنه لا يحلم، أنه لا يتوهم، لكنه لم يجرؤ على أن يقفز فرحا، لأن قفزة بحجم أشواقه لن تعيده للأرض ثانية.. تشبث بغطائه.. تشبث بجسده خائفا من أن تبعثره المفاجأة، وبهدوء نهض".[298] كما كان للغة الشاعرية دورها في رسم الحالة النفسية وترددها في تصديق المفاجأة.

– لم يكن من عادة الرهبان مجالسة أهل الهادية خلافا للأب إلياس، الذي خالف هذه العادة ليقترب من الناس ويعرف مشاكلهم، فشكّل هذا الأمر مفاجأة للأهالي أدهشتهم: "حين وقف الخوري إلياس بباب المضافة، سقطت الدهشة على رؤوس الجميع، بحيث عقدت المفاجأة ألسنتهم".[299]

بنية الحلم

لقد استدرج نصرالله تقنيات السيناريو السينمائي إلى النص الروائي، لقدرتها على تجسيد وقائع الحلم التي يعرضها السارد للمتلقي وجعلها تبدو وكأنها تحدث في تلك اللحظة التي يتم سردها.[300]، لذلك كانت المقاربة بين الحلم والواقع إلى درجة الاختلاط –ذلك أن الأحلام انعكاس للواقع– وعدم تمكين القارئ من التمييز بينهما بسهولة.[301] إن الحلم هو التقنية الروائية المناسبة لسرد أحداث خيالية أو افتراضات تتعلق بالكون والزمان.[302] هذه التقنية تضفي قوة وتشويقا للعمل الروائي، وفي زمن الخيول استخدم نصرالله هذه التقنية –وهي إحدى تقنيات تيار الوعي– في أكثر من موضع ليطلعنا على الجانب الداخلي الخفي لشخصياته وما يدور في خلجاتها:

حلم البرمكي: كانت بداية هذا الحلم حلم يقظة، كان يتمنى البرمكي أن تكون الحمامة –ذات النسل العريق– الفرس التي يلقحها فحله عنتر: "ورغم أنه يعرف أن حلماً بحجم هذا الحلم لن يتحقق، فإنه عاش على أمل تحققه. وكان

---

[297] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص9.

[298] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص40.

[299] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء* ص67

[300] محمد عبيد وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة*، ص102.

[301] سليمان الأزرعي، *الرواية الجديدة في الأردن*، ص74.

[302] محمد عبيد وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة*، ص124.

على الدوام مستعداً لأن يدفع من جيبه للوصول إلى هذه الغاية، أما حصانه فلم يكن أقل تلهّفاً".[303] فيقفز بنا نصرالله بعد عدة مشاهد لعنوان" شياطين البرمكي"، فيقول: "راقب البرمكي الحمامة من بعيد، تاركاً مسافة أمان بين شداد – حصانه الثاني– وبينها، لكن كل شيء انهار دفعة واحدة. كانت الحمامة تتقافز في السهل.. اندفع شداد خلفها.. رأته الحمامة فانطلقت هاربة.. كان هناك رجال استطاعوا قطع الطريق على شداد.. تغيرت أحوال البرمكي. رأى الرجال يُغيرون على بيته يذبحون شداد، ويمزقون قطيع غنمه والأبقار الثلاث، يشتتون أسرته...اختفى البرمكي وأسرته تماما..وظهرت جاهة .. عليكم أن تدفعوا لأهل الحمامة ألفين وأربعمائة صاغ، وأن تجلوا –تبتعدوا– عن القرية ثلاثة أعوام..".[304] قدّم نصرالله لهذا المشهد بمشهد "أحلام البرمكي"، وأفهمنا أنها أحلام يقظة، لكنه أوقعنا في وهم الحقيقة في مشهد "شياطين البرمكي"، فأوهمنا أنه مشهد حقيقي مستخدما تقنية تسريع السرد استطاع أن يُدخل القارئ في جو التوتر والانفعال الذي يعيشه البرمكي عبر تيار الوعي المنهمر عليه بأحداثه المتسارعة، لنستيقظ من هذا الوهم مع استيقاظ البرمكي فزعا: "أما البرمكي نفسه فما إن سمع به حتى انتفض فجأة واستيقظ فزعاً تحت شجرة التين التي كانت تظلله. وحمد الله أن ما رآه لم يكن سوى حلم!! تلفت حوله بذعر..".[305] (فزعا، انتفض فجأة، حمد الله، تلفت، بذعر) ألفاظ نقل لنا بها نصرالله –مع دقة الوصف لتلك الأحداث– الحالة النفسية للبرمكي وأشركنا إحساسه. الحلم الذي رآه البرمكي لم يكن سوى انعكاسا لأفكار كانت تجول في خاطره وتمنى تحقيقها، لكن تجربته في الحلم أقنعته بصرف تلك الأفكار.

حلم خالد: "حين رأى نفسه في المنام يحمل الحمامة بين يديه ويصيح بفرح: عسل للبيع، ورد للبيع. لكن شيئا ما هزّ طراوة وشفافية حلمه فاستيقظ مذعورا.. ".[306] الذعر الذي أصاب خالد كان بسبب تذكره أن هذا الأمر قد عاشه حين كان يحمل زوجته أمل ويطوف بها حوش البيت ويصيح عسل للبيع!! – لذا أردف راوينا– من أين له أن يعثر على امرأة كالحمامة. ومرة أخرى: " ذات ليل فتح خالد عينيه فرأى رجلا فوق رأسه تماما.. سأله: ما الخبر؟ قال: عزيز مات. من؟.مولود الحمامة. كان ذكرا. راحوا يكفنونه ويحفرون له قبرا عميقا يليق بأمير.. وحين استداروا وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع الحمامة التي تبعتْهم باكية. رفع خالد طرف عباءته ليمسح دموعها، لكن الحمامة اختفت فجأة قبل وصول يده إليها. هبّ فزعا".[307] شعر القارئ بالحالة النفسية التي يعيشها خالد بسبب فقده لزوجته بداية ثم فقده للحمامة، والألم الذي أصابه من هذا الفقْد.

حلم حمدان: عاش حمدان في بيت الحاج محمود ثم في بيت الحاج خالد منذ أن مات والداه، يصنع القهوة في المضافة، في يوم؛ بعد أن حاوره الحاج خالد بمسألة الزواج الذي قد كان نسيه حمدان، لم يستطع النوم تلك الليلة وقد شعر

---

[303] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص55.

[304] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص70،73.

[305] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص73.

[306] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص 76.

[307] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص 150.

بشوقه لامرأة. وصف الراوي الحالة النفسية التي ألمّت بحمدان: "راح يرتجف، حاول أن يلملم شتاته.." ثم: " قد يكون أغفى قليلا، قليلا فقط حين رأى نفسه يسير في بستان تملؤه أشجار من كل نوع.. التفت رأى رأساً آدمياً أمامه كان الوجه للأرض.. قَلَب الرأس، فوجد أنه يشبهه كثيراً. خاف، لكن فكرة غريبة خطرت له، هي أن يتحسس رأسه ليتأكد.. شدّه للأعلى.. عند ذلك استيقظ. راحتاه تحت فكيه تدفعان الرأس إلى أعلى .."."[308] حالة من الضياع والفوضى أصابت حمدان بعد كلام الحاج محمود انعكست بمشاهد الحلم الخيالية، وشعوره بالنقص وخوفه من رفض أي امرأة له كونه أعرجا، كلها نقلت لنا وشعرنا بها من خلال دقة الوصف والحوار الداخلي في الحلم.

حلم ريحانة: الحالة النفسية التي تعيشها ريحانة بعد قتل زوجها وإجبارها على الهبّاب التي تكرهه وتحتقره، وحالة الخوف التي تسكنها لانتظارها موتا مرتقبا برصاصة من الهبّاب، جعلها كل ليلة ترى نفس الحلم: "كانت بقعة الدم تتحرك كل ليلة تحت فراشها وتحوّله إلى مركب تتقاذفه الأمواج. تصحو، ولا شيء في يدها غير قطعة المعدن الباردة ذات الفوهة التي يربض في نهايتها الموت".[309] الدم والموت: هي ما تخاف منه، تتقاذفه الأمواج: حالة الفوضى وعدم الاستقرار في بيت الهبّاب، يربض: تشعرنا بالترقب والانتظار للحظة المناسبة.

حلم ناجي: بعد أن أصبح ناجي مدربا في جيش الإنجليز فرح كثيرا ورجع إلى الهادية في إجازة، وعندما وصل ووضع رأسه لينام: "سمع ذلك الصوت: ستصبح عريفا في البوليس البريطاني ومدربا؟ ارتبك ناجي: ولكن كيف عرفت يابا؟.."."[310] جاءه أبوه معاتبا له بأنه سيكون مدربا وسوف يتحكم بأولاد الناس ويشتم ويلعن؛ فالمدرب برأي الحاج خالد يجب أن لا يكون أديبا ولا ابن ناس حتى ينجح، وناجي ابن الحاج خالد لم يُرسل هناك لهذا الهدف، وإن قبل بهذه الوظيفة فسيتبرأ أبوه منه، استيقظ ناجي فزعا، وعندما رجع للمعسكر اعتذر عن قبول وظيفة التدريب.

توظيف الكابوس:

وهي تعتبر من المظاهر الحادة، التي تصل إليها الشخصية في المنام، إذا يتحول حلمها إلى عالم مرعب مليء بالوحشية والصور المخيفة، التي تحيط بها، ولا تصل الشخصية إلى هذه الحالة، إلا بعد مرورها في الواقع بأزمات شديدة الحدّة و بواقع شديد المرارة، فتنعكس هذه الشدة في المنام، وتظهر بصورة الكابوس.

كابوس فاطمة: كانت فاطمة بنت الحاج خالد مشهورة بصداقتها للحيوانات وقربها من قلوبهم وتعلّقهم بها، وكان أن جمل إيليا قد هاج ولم يستطع أحد تهدأته، فقرروا إطلاق رصاصة عليه، لكن فاطمة منعتهم ونجحت بتهدئته، لكن هذا

---

[308] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص205.

[309] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص177.

[310] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص448.

لم يمنعهم من ذبحه، مما أحزن فاطمة جدا وأدخلها في حالة من الكآبة والتي أحست أنها خانت الجمل بعد أن وثق بها: "ذات ليل استيقظت تصيح، كان الكابوس.. لا يحتمل: رأت نفسها تسير عبر شوارع الهادية.. خافت.. تلفتت.. رأت قطعاً من اللحم.. كانت عيون الجمل نفسه.. انطلقت تركض.. اندفع نحوها هائجا.. أحست بذلك الهواء.. يهبّ كعاصفة ويلقي بها.. صاحت وصاحت".[311] دقة الوصف وانتقاء الألفاظ نقلت لنا تلك الحالة التي كانت تعاني منها فاطمة.

بنية الرسائل

تعدّ من البنيات الرئيسية التي اشتغل عليها نصرالله في رواياته بما فيها رواية "زمن الخيول البيضاء"، وقد لجأ إليها لغايات جمالية ودلالية أيضا.[312]

- حين عمل ناجي في المعسكر الإنجليزي في بناء الثكنات أصيب خلال عمله، فجاءه المراقب وأعطاه رسالة: "ناوله ورقة وقال له اذهب إلى أبو الذيب واعطه هذه الورقة. مثلما يذهب المرء حاملا أمرا بقطع رأسه ذهبت. قال ناجي لأبيه بعد أيام. لقد نظرت إلى الورقة ولم أعرف ما المكتوب بها، كان يجب أن تعلمنا الإنجليزية يا شيخ حسني"،**[313]** ونحن نعرف في موروثنا الثقافي قصة حامل رسالة قتله (الشاعر طرفة بن العبد) وكأن ناجي يستحضرها وهو يأخذ تلك الورقة لذلك حاول قراءتها ولكنه لم يفلح فهو لا يعرف اللغة الإنجليزية، وعندما أوصلها إلى أبو الذيب أعطاه ورقة أخرى ليسلمها للخواجا الذي وجد عملا مناسبا لناجي في تجهيز الشاي.

- كان استخدام الرسائل في وقت الثورة أمر مهم، لذا لجأ الحاج خالد إلى استخدام الحمام الزاجل لإيصال تلك الرسائل، فكانت تصل إلى برج الحمام في بيته ليتولى ناجي تنفيذ المكتوب بها: "عندما كان الحاج خالد يتنقل من منطقة إلى أخرى.. يرسل حمامة زاجلة، تهبط في برج سمية، فتمسكها وتسلّمها لناجي"،**[314]** لكنّ الحاج صبري علم بهذا لذا قام بتبديل حمامة زاجلة بأخرى كانت معها رسالة تبين مكان اللقاء بين الحاج خالد وهاشم شحادة وعلى إثره تم حصار الحاج خالد في ذلك المكان واستشهاده.

- استطاعت عفاف زوجة محمود أن تتعلم القراءة بإرادتها ودون معرفة زوجها لتفاجئه، لكنها قبل أن تقول له شيئا وجدت رسالة في جيب بنطاله من ليلى التي تخاطبه بكلمة حبيبي الأمر الذي أحزن عفاف ودفعها لإخفاء معرفتها القراءة عنه.**[315]**

---

[311] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص201.

[312] محمد عبيد وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة*، ص120، (بتصرف).

[313] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص242.

[314] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص309.

[315] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص432.

المبحث الثاني:اللغة

أداة تعبير ووسيلة نقل الفكر وتوصيله على المستوى الجماعي، أما على المستوى الفردي فهي وسيلة تفكير، إذ لا يمكن للمرء أن يفكر بدون لغة، وهي أيضا وسيلة لما يفكر به، وعليه فإن الأدب ثمرة التفكير، واللغة أداة التفكير والتعبير والتوصيل.[316] لذلك يسميها "مندولا" الواسطة، وهي أكثر أدوات الرواية تأثرا و تكلفا، ولا تسمح بالتعبير عن واقع الحياة إلا بصورة انتقائية وفردية جدا، لأنها محدّدة بقدرته على إيصال ذلك الواقع بالكلمات وحدها، وكل ما نستطيع رؤيته منه هو ما يكون موجودا بالنسبة له على المستوى الكلامي.[317] ومن هنا تظهر قدرة الكاتب على التأثير، يقول دكتور جونسن :"نحن لا نتأثر إلا بقدر ما نصدق".[318]

اللغة في الروايات الحديثة خرجت عن المألوف المتعارف عليه في الروايات التقليدية، والتي تسير بجميع عناصرها بشكل منطقي منتظم، لكن في الروايات الحديثة والتي يُعبَّر عنها بـ"تيار الوعي"، تحتاج للغةٍ تتناسب مع الحالة النفسية للشخوص واضطرابها، بحيث تكون مؤثرة ومقنعة للقارئ، لذا لجأ الكاتب في روايتنا إلى اللغة الشعرية والمجاز والرمز والتكرار، فهي لغة أكثر شفافية ودقة للتعبير عن الحالات النفسية في الرواية.

وبما أن الرواية تحاكي الواقع وتنقل لنا ما يدور على لسان شخصياتها؛ نقل لنا الكاتب –إضافة للغة العربية العامي منها والفصيح– بعض الألفاظ الإنجليزية متبِعاً إياها بلفظها العربي، مثل: فكن عرب، أي أم سوري، ناو؛ الآن. وكانت في حوار بعض الضباط الإنجليز وكلام ناجي بعد أن تعلّم اللغة.

وهذا حوار ناجي مع مستر كَمِن: "–هاندز أب. ارفع يديك. رفعهما. –إلى اليمين.. صرخ: أنا مستر كمن. –فكِن كمن!! تبا كمن. في الليل لا أعرف مستر كمن من سواه.. راح مستر كمن يطلق الشتائم..راح ناجي يشتمه ..بالعربية. إنها المرة الأولى التي تتاح له شتم عسكري إنجليزي، فاستغلّها إلى أقصى الحدود!!".[319] استغل ناجي فرصة تسللّ مستر كمِن ليلا أثناء نوبة حراسته ليضبطه إن كان نائما، لكن ناجي وجدها فرصة لتلقينه درسا؛ فلم يقبل منه أي كلام دون أن يقول كلمة السر، الكلمة التي لم يكن يعرفها مستر كمن فانهال عليه بالشتم وما كان من ناجي إلا أن قابله بمثله، مصوّبا السلاح عليه، لم يشفع له أي حد حتى خرج إلى النور وتأكد من هويته. نستطيع أن نرى هنا علاقة الفلسطيني بالآخر؛ فصحيح أنه يخدم في جيشه لكن ولاءه لن يكون له أبدا.

---

[316] عبد القادر أبو شريفة،وحسين لافي قزق، *مدخل إلى تحليل النص الأدبي*، (عمان: دار الفكر، 2008)، ص28.

[317] مندلاو، *الزمن والرواية*، ص63.

[318] مندلاو، *الزمن والرواية*، ص64.

[319] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص436.

اللغة العامية

استخدم نصرالله في رواية "زمن الخيول البيضاء" اللغة العربية الفصحى في سرده لأحداث الرواية، لكنه وظّف اللغة العامية في بعض الحوارات بين الشخوص؛ كالحوار العائلي، وكذلك في أجزاء من صوت الراوي، أو فيما اقتبسه نصرالله من الموروث الثقافي من أمثال وأغان، لم يكن نصرالله منتظما في استخدام شخصياته للعامية فكان يراوح بينهما في بعض المواضع؛ فالشخصية الواحدة قد تتكلم العامية في حوار وفي حوار آخر تتكلم الفصحة، أو يختلط الحوار نفسه بين اللغتين بطريقة مقبولة وسلسلة. فاللغة ظاهرة اجتماعية تعكس أبعاد المجتمع الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وكذلك يسهم استخدام العامية في اشتمام رائحة الماضي وروحه، وكأننا نحن من نجلس مع الشاهد ونستمع له.[320]

—"ولو يا خالد هانت عليك إمك لهالحد حتى تكسّر صحونها!! (عامية) لم يُجب. اختلت بالحاج محمود، قالت له (فصحى): لا تخلّي الصحون اللي انكسرت تروح خسارة!! (عامية) انتفض الحاج محمود، باحثا عن بقية الصحون ليهشمها. لم يجدها. فحمدت الله على أنه ألهمها إخفاء أغلى ممتلكاتها (فصحى)".[321] في هذا الحوار العائلي بين خالد وأمه بعد أن كسر لها صحونها لإعلان رغبته في الزواج، عاتبته (ولَوْ يا خالد) كيف تهون وترخص عنده هذه الصحون التي كانت ذات قيمة عند أمه، لذلك اقنعت الحاج محمود بتلبية طلب ابنهما، حتى لا تكون الصحون التي كُسرت قد ذهبت هباءً.

—وفي حوار الحاج محمود مع زوجته عندما سمعها تغنّي وتكسّر الصحون: "شو..بدك عريس؟!!(عامية) لكنها لم تجبه وتابعت رقصها وغناءها فراح الحاج يردد(فصحى): الله يعوض علينا انجنّت المرا (عامية)"[322] فطلب العوض من الله لأن زوجته جُنّت.

—وفي صوت الراوي عندما روت ابنة الحاج أبو سليم قدوم العزيزة عندهم لحضور محاكمة ابنيْها، راوح الكاتب بين الفصحى والعامية: "اللي بدي أحكيلك إياه (عامية)، رأيته بعيني هاتين وسمعته بأذني هاتين(فصحى)".[323] الذي سأقوله لك؛ عن زيارة العزيزة وما حلّ بها.

—وفي تعليق الأنيسة بعد أن ذهب الرجال لسليم بيك؛ كان في العامية كله: "يا خسارة صرنا مش عارفين حالنا وين. طاسه وضايعه، الإنجليز ينهشوا فينا واليهود..ومشايخنا..".[324] كان الناس ضائعين فالكل كان يريد التخلص منهم ويكسب من ورائهم وشبهت حالهم كالقِدر الضائع.

---

[320] عدنان أحمد أبو شبيكه، "لغة الرواية في التاريخ الشفوي الفلسطيني بين الفصحى والعامية"، *مجلة جامعه القدس المفتوحة للابحاث والدراسات*، عدد21، تشرين أول 2010.

[321] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص:14.

[322] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص85.

[323] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص340.

[324] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص401.

اللغة الشاعرية

تعج اللغة الشاعرية في الرواية، فلا تكاد تخلو أي صفحة من نوع من أنواعها، فقد استخدم نصرالله الشاعر الكثير من الصور الفنية من تشبيه وكناية واستعارة ومجاز أغنت النص وارتقت به:

- (أطبق الليل) تماما على الدنيا..(الصمت وحده يحرث المكان) (بألسنته المقطوعة) (وأطيافه التي تسير ملتصقة بالجدران مخافة أن يراها أحد): (أطبق الليل) استعارة مكنية؛ شبه الليل بالشيء الذي يطبق، المشبه به محذوف. (الصمت وحده يحرث المكان بألسنته المقطوعة) استعارة مكنية؛ شبه الصمت بالفلاح الذي يحرث الأرض بلسانه المقطوع وله طيف، (بألسنته المقطوعة) كناية عن الصمت. (وأطيافه التي تسير ملتصقة بالجدران مخافة أن يراها أحد): استعارة مكنية؛ شبه الطيف بالإنسان الجبان الذي يمشي جانب الجدران خوفا من رؤيته مع أن الأصل استحالة رؤية الأطياف، وكأنه يقول أن الإنسان الجبان ما هو إلا طيف إنسان.

- كان الأمر يبدو (كما لو أن الفرس كانت تعدو في الفضاء) فلم يفق أحد على وقْع أقدامها: استعارة مكنية؛ يصف الكاتب الحمامة وكأنها طائر يعدو في الفضاء فلا يُسمع وقع أقدامه، فحذف المشبه به وهو الطائر وذكر شيئا من لوازمه وهو الفضاء. وفيها كناية عن الخفّة والرشاقة التي كانت تتمتع بها الحمامة.

- ولولا ذلك (الضياع الذي استلّ فتاهم) من بين أيديهم: استعارة مكنية؛ شبه الضياع بالسيف الذي يُستلّ من غمده، وكأن الفتى أُخذ من بينهم. كما يمكن أن نقول: شبه صورة الضياع الذي استلّ ابنهم من بينهم، كصورة استلال السيف من غمده فيكون تشبيه تمثيلي.

- (وانكمش وجهه المستدير وانطفأ)(كسحابة صيف): كناية عن الحزن والتحسّر، وشبه انكماش الوجه بسحابة الصيف الجافة التي لا تمطر على سبيل التشبيه التمثيلي، وتُقال (سحابة الصيف): مجازا عن سرعة الزوال، عندما تحلّ أزمة وتنقضي بدون مشاكل.

- وحين رأى استدارة بطن امرأته ذات يوم صرخ فرحا: أقسم إذا كان ولدا سأسمّيه يونس.. وجاءت سمية، سمية التي (أغلقت الباب خلفها بإحكام): تشبيه ضمني؛ إذ شبّه الرحم بالبيت الذي له باب يمكن غلقه، حذف المشبه والمشبه به وترك لنا شيئا من لوازمه وهو الباب.

- (سقطت الدهشة) على رؤوس الجميع، بحيث (عقدت المفاجأة ألسنتهم): استعارة مكنية؛ فشبه الدهشة بالشيء الذي يسقط. وكذلك شبه المفاجأة بالإنسان الذي يمكنه أن يعقد، وشبه ألسنتهم بالحبل الذي يُعقد.

- عثرة الحكمة: استعارة مكنية؛ فشبة الحكمة بالإنسان الذي يتعثر.

- فورة الدم: كناية عن الغضب الشديد.

- في وصف الشيخ ناصر العلي: محدقا في السماء (بعينيه العميقتين)، كما لو أنه يريد (تقليب صفحاتها) بقامته الصغيرة المشدودة و(وجهه الصغير كوجوه الأطفال): (بعينيه العميقتين) كناية عن الحكمة، (تقليب صفحاتها) استعارة مكنية؛ حيث شبه السماء بالكتاب الذي تُقلّب صفحاته، (وجهه الصغير كوجوه الأطفال) تشبيه مفصل؛ فشبه وجه الشيخ بوجه الأطفال في كونه صغيرا.

- كان موسم الزيتون طيبا في ذلك العام، ولم (تتأخر السماء) فقد جاء مطر بعث الحياة في الأشجار فسرتْ في عروقها خضرة عميقة و(أضاءت ثمارها) فاندفع الجميع نحو الكروم: استعارة مكنيه؛ فشبه السماء بالإنسان الذي يتأخر، وكذلك شبه الثمار بالمصباح الذي يُضاء.

- حاول انتزاع قدميه من بين (فكّي الدم) المطبقين بجنون عليه، لم يستطع: استعارة مكنية؛ شبه الدم بالوحش الذي لديه فكّاً، وفيه كناية عن التورط والتأزم.

- أغرب ما حدث بعد ذلك أن البرمكي لم يستطع أن يأخذ ابنه بين يديه..كان الاسم (يقصيه بعيدا عنه)، و(يقف حاجزا) يمنعه من رؤيته: كناية عن الرفض.

- بصعوبة تمكّن من الوصول إلى الرسن، (فحيح مجنون) رجّ المكان، و(تناثر الشرر في الهواء) منذرا بالنار. لكنه لم يكن يريد العودة.. إلا فوق ظهر الأدهم. قاومه الحصان (مزّق الريح بحوافره)، لو كان باستطاعة البشر أن يروا ما حدث بأعينهم، لرأوا تلك (الخدوش العميقة في جسد الهواء): (فحيح مجنون) تشبيه ضمني؛ شبّه الحصان (الأدهم) عندما رأى الهباب بالأفعى التي تصدر حفيفها عندما تحس بالخطر وتريد الإنقضاض عليه، وكأنه ينذر الهباب بعاقبة امتطائه. (تناثر الشرر في الهواء) كناية عن الغضب الشديد، وفيه تشبيه ضمني؛ حيث شبه غضب الأدهم بالنار التي تنثر الشرر. (مزّق الريح بحوافره) استعارة مكنية؛ فشبه الحصان بالوحش الذي يمزّق، كما شبه الهواء بالشيء الذي يُمزَّق. (الخدوش العميقة في جسد الهواء): استعارة مكنية؛ فشبه الهواء بجسد الإنسان الذي يُرى عليه أثر الخدوش عندما يهاجمه أحد.
- راحت (السماء تتقدّم) مطبقة على الأرض من كل الجهات، فحيثما التفت المرء كان يرى (حائطا صلدا من غبار داكن) يتقدم، كما لو أن (القرى وقعت أسيرة فخ جهنمي) لا نجاة منه: (السماء تتقدّم) استعارة مكنية؛ شبه السماء بالإنسان، (حائطا صلدا من غبار داكن) كناية عن الهمّ والكرب القادم. (القرى وقعت أسيرة فخ جهنمي) استعارة مكنية؛ شبه القرى بإنسان يقع بالأسر، كما شبه جهنم بإنسان ينصب الفخاخ.

- سرقت الفرس مثل سرقت الروح: كناية عن مكانة الخيل عندهم، فشبه الفرس بالروح للإنسان وكما لا يستطيع الإنسان العيش بدون روحه، فلا يستطيع العيش بدون فرسه.

- ضحكت الأصيلة: استعارة مكنية؛ شبه الخيل بالمرأة التي تضحك.
- جئنا نطلب القرب منكم، طالبين (مهرتكم): استعارة مكنية؛ شبه المرأة بالفرس وهنا قلب الكاتب الصورة وفيها بلاغة أكثر.

- اعتصر عمامته كما لو أنه يعتصر رأسه: كناية عن القلق والتوتر، (يعتصر رأسه) مجاز مرسل علاقته محلية فالرأس محل العمامة.

- كانت الحمامة أشبه ببدر لا يعرف الأفول: تشبيه تمثيلي، شبه صورة الحمامة ببياضها وجمالها ونشاطها، بصورة البدر المكتمل الذي لا يغيب.

- كنت أعتقد أنك بدأت تصدأ: استعارة مكنية؛ شبه الإنسان بالحديد الذي يصدأ فحذف المشبه به وترك قرينة تدل عليه وهي الصدأ.

- يعيد الخضرة إلى قلب ولده: استعارة مكنية؛ شبه قلب الابن بالبستان الذي يمكن إعادة تخضيره.

- ما دام (فم الهادية مطبقا)إلى هذا الحد: استعارة مكنية؛ شبه الهادية بالإنسان الذي يطبق فمه.

يُلاحظ من هذه الأمثلة كثرة استخدام نصرالله للاستعارة وهذا دليل على قدرته في ابتكار ألفاظ وتراكيب (مشبه به) بعيدة عن الأذهان وربطها بالمشبه، وهذه قدرة فذة ونعمة إلهية، فتحت له عدّة أبواب لأكثر من فن كما سبق وذكرنا، فاجتمع إبراهيم نصرالله الشاعر والفنان التشكيلي والناقد والروائي في وقت واحد.

الاقتباس

استفاد نصرالله من خلفيته الدينية والثقافية في رواياته فكانت الآيات القرانية والأحاديث والأشعار والأمثال الشعبية حاضرة في "زمن الخيول البيضاء"، وهو بذلك يؤكد لنا أهميتها في المجتمع الفلسطيني؛ فالحياة فيه تقوم على أساس الدين والعادات والتقاليد، فهي مكوّنات أساسية له، ولذلك اهتم نصرالله بها وأوردها على لسان شخصياته وفي أحداث الرواية، فهو يعتز بدينه وتراثه وبوطنه، ويؤكد من خلالها حرصه على إحياء الكثير منها في الذاكرة:

الاقتباس من القرآن الكريم

- قراءة سورة التين في الصلاة لتوضيح حكم حلف خالد للطلاق –عندما قال عليّ الطلاق إنها(زوجته) أحلى من الشمس والقمر ثلاث مرات–، حيث تعمّد الشيخ ناصر الخطأ في آخر آية: {والتين والزيتون وطور سينين ...لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم}[325] (التين:1-4)، ليفهم الناس الخطأ الذي وقعوا فيه وأن الله خلق الإنسان أجمل من المخلوقات جميعا.
- قراءة آيات كريمة من سورة العاديات على الحمامة بعد أن رفضت مغادرة مكانها: {والعاديات ضبحا. فالموريات قدحا..} [326] (العاديات:1-7)، والعاديات هن الخيل التي أقسم بها الله تعالى وهي تعدو في الغزو ويظهر صوتها (الضبح) من سرعة عدْوها.
- استشهاد الحاج محمود بالقرآن الكريم عندما كان يناقش مسألة علوّ صليب الدير عن مأذنة الجامع والذي أدّى إلى استياء أهل القرية: "هم يقولون صُلب والقرآن يقول (وما صلبوه وما قتلوه ولكن شُبّه لهم)"[327] (النساء: 157). فهو مع إيمانه بأنه لم يُصلب اِحترمَ اعتقاداتهم وأقنع الناس بضرورة احترامها.
- "ليلة بأكملها انطلقا معا –خالد والحمامة– لم يتوقفا..لاحت له الخيوط الأولى من الفجر، انتبه، ولكنه لم يعد يحس بجسده.."،[328] (الخيوط الأولى من الفجر) هذه الإفادة موجودة في الآية الكريمة: {وكلوا واشربوا حتى يتبن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر} (البقرة: 187) فاستخدم لفظ الخيط الموجود في الآية للتعبير عن أول ظهور للفجر.
- "الحاج محمود والخوري جورجيو انتبذا مكاناً قصياً في طرف البلد"،[329] للحديث عن مشكلة دسّ بعض الرهبان كتيبات في جيوب الأطفال لتعليم المسيحية. فاختارا مكانا بعيدا ومتطرفا عن القرية، كما اعتزلت مريم الناس بعد حملها في مكان بعيد: {فحملته فانتبذت به مكانا قصيّا} (مريم:22).

---

[325] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص20.

[326] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص23.

[327] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص22.

[328] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص26.

[329] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص32.

- "انطلقت المصفحة بعيداً، في جوفها سبعة رجال ثامنهم الحاج خالد، وخلفها ثلاث عربات جيب عسكرية"،[330] اقتبس نصرالله لفظ سبعة وثامنهم من الآية الكريمة التي تتحدث عن أصحاب الكهف ليدل على الرجال السبعة الذين أعتقلهم الإنجليز لعدم اعترافهم عن أصدقائهم وكان ثامنهم الحاج خالد. {ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم} (الكهف:22).

الاقتباس من الأحاديث الشريفة

- حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (كل شيء ليس من ذِكر الله فهو لهو ولعب إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة).[331] فقد عدّ النبي صلى الله عليه وسلم عناية الرجل بفرسه من اللهو المباح الذي لا يحاسب عليه الإنسان كما لا يحاسب على مداعبته لزوجته أو مشي الرجل بين الأهداف للرمي في الأقواس، أو تعلمه السباحة وكلها فيها مصالح للإنسان، قد يؤجر عليها إن أخلص نيته.

وجاء ذكر هذا الحديث في الرواية للتمهيد لخطبة الجمعة التي خصصت للحديث عن الحمامة وبيان أهمية ومكانة الخيل في المجتمع الإسلامي.

الاقتباس من التراث العربي(أقوال العرب والأمثال الشعبية والشعر والقصص الشعبية)

- " ثلاثة أنواع من الخدمة لا تعيب المرء: خدمته لبيته، وخدمته لفرسه، وخدمته لضيفه".[332] وهذا قول عربي يتضح فيه مكانة الخيل عند العرب.
- "إن ظهْر الفرس عز وبطنها كنز"، [333] فركوب الفرس يعطي عزة ومهابة لراكبها، والذي تحمله في بطنها فهو كنز لأنه يحافظ على نسلها الأصيل.
- "لا ستر لمن لا يستر حرة"،[334] الذي يعتدي على حرة كالفرس فلا يأمل أن يعفا عنه.
- "انكسر الشر"،[335] وهو مثل يُقال مواساة للذي كسر شيئا بأنه كسر شرا وانتهى ولا داعي للغضب.
- عندما جاءت الحمامة وقد سرقها رجل وضاعت عن أهلها، قال هذه الأبيات الحاج محمود بعد أن أخذه سحر الحمامة:

إذا ما الخيل ضيعها أناس حميناها فأشركت العيالا[336]

---

[330] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص280.

[331] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص23، الحديث صحيح، رواه السيوطي والألباني، الموسوعة الحديثية http://www.dorar.net

[332] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص23.

[333] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص79، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، *المستطرف في كل فن مستطرف*، (بيروت: عالم الكتب، 1419)، ص359.

[334] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص10.

[335] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص 13.

فيقول إذا أهمل ناس حماية الخيل ورعايتها أو فقدوها فنحن نتولى مهمة رعايتها وكأنها أحد أبنائنا.

- شمس في الدار/ طلّتها هنيّة/ صبح أو ظهر أو بعد العشيّه/ شمس في القلب/ في صدرك وصدري /وتحفن نورها إيدك وايدي/ شمس تمشي وتركض في البراري/ تلوع عاشق وتفتن صبيّة.[337] هكذا عبّر الحاج محمود عن فرحه بعد رجوع الحمامة فيشبهها بالشمس التي تطل بهناء في الصبح أو في الظهر أو في العشاء وهي في القلب في صدورنا، وأيدينا تغرف من نورها، وتركض في البراري وتأسر كل شاب وبنت، وكل هذا يدل على مدى حبه وتعلقه بالخيل.

- أبيات من قصيدة طرفة بن العبد كان ثيودرس يرددها: [338]

ألا أيُّهذا اللّائمي أحضُرَ الوغى وأن أشهدَ اللذّات، هل أنتَ مُخلِدي
فإنْ كُنْتَ لا تَسطِيع دَفْعَ مَنيَّتي فَدعْني أباذْرها بما مَلَكَتْ يدي
ولولا ثلاثٌ هُنّ مِنْ عِيشةِ الفتى وجدِّكَ لم أحْفَلْ متى قامَ عُوَّدي[339]

يخاطب لائِمه في حضور الحرب وارتكاب الملذات: أنت لن تجعلني خالدا ولن تستطيع دفع موتي، لذا اتركني أمارس اللذات قبل مجيئه، فلا يهمني متى سيزورني الناس إذا ما حان مرض موتي، فأنا أستمتع بأجمل ثلاث متع في حياة الشاب، ذكرها في أبيات لاحقة وذكر منها الخمر.

- وأبيات أخرى اقترحها الحاج محمود رداً على أبيات ثيودرس لأنها أقرب لروح رجل الدين:

أرى قَبرَ نَحّامٍ بَخيلٍ بمالِهِ كَقَبرِ غَويٍّ في البَطَالَةِ مُفسِدِ
تَرى جُثْوَتَينِ من تُرَابٍ، عَلَيهِما صَفائِحُ صُمٌّ مِن صَفيحٍ مُنَضَّدِ
أرى الموتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ ويصْطفي عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشدِّدِ
أرى العَيش كَنزاً ناقِصاً كلَّ ليلةٍ وما تَنقُّصِ الأيّامُ والدّهرُ يَنفَدِ
لَعَمْرُكَ إنَّ الموْتَ ما أخْطَأَ الفَتى ... لَكالطِّوَلِ المرخى وثِنياهُ باليَدِ.[340]

وهو في هذه الأبيات يذكر الموت الذي يجب على رجل الدين أن يتذكره دائما، فالموت لا يفرق بين غني وفقير ، أو كريم وبخيل، لذلك الحياة ليس كنزا يحافظ عليه لأن الموت لا يخطئ أحدا.

---

[336] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص:11، والأبيات للأخطل وقيل لابن عباس، محمد الدميري، *حياة الحيوان الكبرى*، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1424)، ج1، ص434.

[337] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص41.

[338] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص60.

[339] طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، *ديوان طرفة بن العبد*، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، 2002م، ص25.

[340] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص60و61، *ديوان طرفة بن العبد*، المرجع السابق، ص26.

- "اللي ما إلو عيلة يقناله كحيلة": وهو مثل يقال لمن لم يتزوج بأن يقتني فرساً، وكأن الفرس تحلّ مكان الزوجة؛ قالته الأنيسة عمة خالد لأمه منيرة.[341]

- "الخوف هو الذي قتله": قالها الهبّاب بعد طعنه رجلا واخراجه الخنجر من صدر الرجل بدون دم، فقد جفّ من الخوف، فكان الخوف هو قاتله وليس الهبّاب بخنجره.[342]

- غناء منيرة بعد طلب خالد الزواج:

"يا ويها وأنا اللي صبرت كثير/ يا ويها يا قلب الحبيب اللي امتلا عصافير/ يا ويها ويا هالخبر اللي كسا روحي ابحرير".[343] فهي تتغنم بأن قلب حبيبها بعد صبر طويل امتلأ بالعصافير، وألبس روحها الحرير، وهو كناية عن الفرح.

- "سنة البنات نبات وسنة الفحول مُحُول".[344] هذا مثل يقال عند رؤية خصوبة المحاصيل فبنسبوه إلى كثرة مواليد البنات لهذه السنة، لكن إن كان العكس والمحل أو القحط فيكون مواليد تلك السنة ذكورا.

- "يا عين باص باص، لأرميك بالرصاص":[345] هذه من التراتيل الموروثة التي تقال عندما يصاب أحد بالعين فيحرقون له شبّه وهم يقرأونها.

- أغاني الأعراس: "يا زريف الطول ومن هونا مرق/ ورقبته شبرين من تحت الحلق".[346] تتغنى النساء بالعروس وتصف جمالها بأنها طويلة كالزرافة ورقبتها أيضا طويلة شبريْن من الأذن للرقبة.
- حكاية البدوي مع سلة التين:**[347]** هذه الحكاية استشهدت بها الأنيسة عندما رأت أخوها لا يتعلم من موقف قيادات الثورة الخونة، فينتظرون منهم المساعدة ودعمهم، فشبهته بهذا البدوي الذي كان معه سلة تين وهو يرعى الغنم، فأكل منها ورمى الباقي وبال فوقها ظنّا منه ظان أحدا سيحضر له الطعام، ولكن لم يحضر أحد الطعام وكان قد جاع فراح ينظر لحبات التين ويقول هذه لم يصلها بول وهذه أيضا حتى أكل كل التين.

---

[341] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص74، محمد كمال جبر، *سلسلة التراث الشعبي الفلسطيني*، 2010م،ج2، ص105.

[342] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص45.

[343] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص86.

[344] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص109.

[345] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص211.

[346] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص236.

[347] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص480.

- "خلطوا زيتها بطحينها":[348] مثل يقال كناية عن تخريب أحد لمكان بحيث لم يبق فيها شيء إلاّ وأفسدوه.
- أغاني الحصيدة:

منجلي يا منجلاه راح للصايغ جلاه
والقمر حوله بيدور وينقّط نور وحياه
والقمح عالي وبيميل شرقَه وغربَه يا محلاه[349]

يتغنى الفلاح وهو يحصد أرضه بالمنجل وهو الأداة التي يحصد بها والقمر حوله يدور وينزل منه قطرات النور والحياء، والقمح أصبحت سنبلته عالية فتميل شرقا وغربا، وهذه الأغاني تبعث الحماس والنشاط لدى المزارعين فلا يشعروا بالملل أو التعب.

– "بلاد الوداود إللي بتودّي وما بتعاود":**[350]** وهو قول يقال عندما يرحل شخص أو يبتعد ولا يعود، لبلاد مجهولة، كناية عن عدم رجوعه. قالته منيرة بعد أن غاب خالد وهو يطارد الغزال فكأنه لن يعود.

– "ذنَب الكلب سيظل أعوج حتى لو وضعته في قالب":**[351]** أي أن ذيل الكلب لا يمكن جعله مستقيما أبدا مهما حاولت، وهو مثل يقال عن الشخص الذي لا يبدّل عادته، كناية عن عدم فائدة محاولة تغييره.

– "هالقُبع بها الرُبع":**[352]** مثل يقال عند مبادلة شيء بآخر، وقالها أبو ربحي عندما خطب ابنة صباح لحفيده الفار، وكان مهر البنت مسح ديون صباح التي أخذتها من دكّان أبو ربحي.

– الحكاية التراثية: "حكاية نص انصيص، والشاطر حسن، وست الحسن والجمال، وسيرة الهلالي، وألف ليلة وليلة"**[353]**؛ كلها من القصص التراثية التي كان يتناقلها الناس ويتسامرون بها ويحكوها لأطفالهم، كما كانت أم كريم تحدّث ابنها قبل نومه،**[354]** وقد استبدلوها بحكاية خالد البطل مع الدرك فيما بعد.

– قصة الملك والضيف: الملك الذي كان يقطع رأس كل ضيف يأتيه، استشهد بها الحاج خالد عندما جاءه الشيخ الجليل بعد أن اعتدَت بقراتهم على حقول الهادية، وقد استكثورا كرم ضيافتهم، والواجب أن لا يستكثر الضيف أي كرم من صاحب البيت، حتى لا يكون مصيره مثل ضيف الملك.**[355]**

– الطبخات التقليدية: العدس والمجدرة والكوسا والملوخية والمقلوبة.**[356]** وهي أهم الأكلات في المطبخ الفلسطيني.

---

[348] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص143.
[349] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص 222.
[350] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص102.
[351] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص144.
[352] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص209.
[353] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص358.
[354] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص147.
[355] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص196.

– بابور الكاز: وهو موقد النار الذي يعمل باحتراق الكاز، كان لا بد منه في كل بيت لإعداد الطعام فوقه أو تسخين الماء. وكان في الهادية بابورا واحدا لعائشة اليازورية كانوا يصنعون الشاي فوقه في سهراتهم، لكن ناجي اكتشف أن البوابير كثيرة في المدينة.[357]

الاقتباس من كلام الراوي (الشاهد)

استعان نصرالله أثناء سرده بأقوال الشهود الذين سمع رواياتهم وقد ذكر أسماءهم في ملاحظات الرواية وهم: عمه جمعة خليل، جمعة صلاح، مرثا خضر، كوكب ياسين طوطح، فأورد شهاداتهم بخط مائل تمييزا عن خط السرد الأصلي، فنقل لنا كلامهم كما سمعه منهم.
اقتبس نصرالله من أقوالهم في 43 موضعا تتفاوت بين القصر والطول، لكن أطولها كان 11 صفحة متتالية وكان فيها الشاهد يروي أحداث معركتهم هو الحاج خالد مع الإنجليز في الجبال، من صفحة 313 حتى 323.

كان لتضمين هذه الشهادات في نص الرواية أثره الكبير في نفس القارئ حيث أدرجها نصرالله دون أن يبدل في لغتها لتؤثر في نفسه وهو يسمع شهادة حية ممن هُجّروا من بلادهم، بعد أن ذاقوا العذاب على يد محتلهم. والذي يظهر من هؤلاء الشهود أنهم عاشوا في فترة الإنجليز واليهود ولم يدركوا الأتراك، لأن الكتاب الأول من الرواية احتوى على شهادة واحدة منهم وكانت بقول أحدهم عن الحاج أبو سليم والد أمل عندما ذهبوا لخطبتها، بينما كانت 21 شهادة في الكتاب الثاني، أما الكتاب الثالث فكانت هناك 21، أي كانت متساوية؛ ويرجع هذا كما ذكرناه سابقا في مبحث الزمان، إلى صعوبة التقاء الكاتب بشخص بقي على قيد الحياة من زمن الأتراك.
وقد وظف نصر الله أحدهم ليكون شخصية في الرواية وهي: عفاف زوجة محمود ابن الحاج خالد والتي تمثل واحدة من الشاهدتين (مرثا خضر، كوكب ياسين طوطح)، وقد سبق ذكر ذلك في مبحث الشخصية (شخصية المرأة).

---

[356] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص189.
[357] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص243.

التكرار

التكرار من الظواهر الأدبية التي اهتم الأدباء والشعراء بها، وكانت تتزين بها أعمالهم النثرية والأدبية، وفي عصرنا الحديث اهتم كتّاب الرواية الحديثة بهذا الأمر وجعلوه جزءا من أعمالهم، وكان منهم إبراهيم نصرالله؛ حيث نلاحظ تكرارا لبعض الألفاظ أو العبارات أو المشاهد في مواضع مختلفة من الرواية، ولا يخفى علينا الأثر الذي يتركه مثل هذا الأسلوب؛ من المصداقية في نقل الأحداث ومنطقية تكرارها كما الحال في واقع الإنسان، وكذلك أثرها في نفس القارئ وإثارة انتباهه لمواضع هذه العبارات وأهميتها، وإحساسه بالتعاطي مع الشخصية وفهمها، وهو أيضا يعزز شعوره بأنه يشاهد فيلما سينمائيا، فكأن نصرالله هنا يريد أن يختبر يقظة قرائه وذكائهم. ولأهمية هذا الأسلوب كرره نصرالله في أكثر رواياته، فنراه في طيور الحذر وطفل الممحاة وغيرها.[358]

ظهر التكرار في "زمن الخيول البيضاء" على ثلاث صور: تكرار لفظ، وتكرار عبارة، وتكرار موقف أو مشهد: سنستعرض كلا منها في جدول منفصل كالآتي:

تكرار الألفاظ:

الكلمة	التردد في النص	الصفحة
الريح، الرياح	الحد الأدنى 50 مرة	-141-179-100-83-81-80 -71 -62-28 -119 -118 -117 -182-181-461-259-161 131 -127 -126 -120
هزّ	الحد الأدنى 30 مرة	-29 -25 -24 -20 -19 -14 -93 -82 -80 -77 -76 -49 -48 -44 -30 -373-242 -131 -126 -123 -117 -101 346-367
خائف، الخوف	الحد الأدنى 40مرة	-97 -81 -78 -73 -51 -45 -41 -40 -24 -11 25 -127 -120 -100 -98
الصمت، صامت	الحد الأدنى 100 مرة	-39 -38 -37 -30 -29 -22 -19 -18 -17-14 -47 -33 -24 - 20- 15- -9 -44 -43 -41 -115 -99 -92 -90 -87 -77 -72 -52 -48 -127 -121 -118 -117 -116- -103 -100

[358] أحمد بستانجي، *إبراهيم نصرالله وروايته عن فلسطين*، ص227.

		-128 -136 -138 -139-156 -140 -186 -201 -267 -259 -299 -311 -323 -337 -388 -393 -344 -363 -367 -258 -53 -398 -400 -403 -405 -410 415 -424 -430-425 -443 -447 -448 -449 -465 -467 -473-481-483-496-498-500-502 503
ثلاث، ثالثة	الحد الأدنى 80 مرة	-12 -14 -18 -19 -21 -22 -23 -25 -39 -40 -41 -47 -71 -52 -72 -73 -74 -79 -81 -83 -90 -97 -103 -107 -109 -112 -115 -116 -117 -118 -121 -125 -138-479-480-427
عين	الحد الأدنى 80مرة	-20 -23 -24 -25 -29 -30 -31 -39 -40 -44 -47 -48 -50 -52 -53 -54 -59 -60 -68 -75 -77 -79 -14 -80 -81 -82 -83 -84 -91 -93 -94 -95 -101 -103 -105 -107 -109 -124 -126 -133 -134 -136 -139 140
المفاجأة، فجأة	الحد الأدنى 50 مرة	-9 -15 -40-56 -67 -77 -82 -84 -89 -98 -99 -119 -120 -121 -123 -124 -127 -128 -132 -139 -104 -102 -84 -73 -70 -57 -53 -51 -50 -49 -43 -41 -25 21

من خلال هذا الجدول يتبين لنا الألفاظ التي حرص نصرالله على توظيفها في النص بتكرارها في مواضع كثيرة؛ فكلمة الريح التي كررت في كثير من المشاهد بلفظ (الريح، الرياح) لإضافة تأثير خلفي للمشهد ،كما تضفي نوعا من التوجس لما هو قادم في المستقبل.

أما كلمة (هزّ، الخوف، الصمت، المفاجأة) تعكس الحالة النفسية والجسدية للشخصية، وهو بهذه الألفاظ يقرّب لنا حالة الشخصية فنتخيلها في مشهدها وكأنها أمامنا، فيسهل علينا التفاعل معها وفهمها.

وكلمة (عين) التي حرص نصرالله على تكرارها في أكثر المشاهد فهي تعكس لنا ما في داخل الشخصية فـ(العين مرآة النفس) كما نعرف، فكان نصرالله يسلّط كاميراته على عين الشخصية ليرينا داخلها ولذلك نفهم شخصيته أكثر ونسبر أغوارها.

أما تكراره للعدد (ثلاثة) فلا يخفى علينا قيمة العدد ثلاثة في مجتمعاتنا وخاصة الإسلامية منها؛ (الوضوء، صيام النافلة، الطلاق، الدعاء، ..) فلهذا الرقم أهميته الدينية التي حرص نصرالله على الاستفادة من أثرها في نفس القارئ، وكذلك الأزمان ثلاثة؛ ماض ومضارع ومستقبل، وكُتُب روايتنا ثلاثة؛ الريح، البيوت، البشر.

تكرار العبارات:

العبارة	التردد في النص	الصفحة
أنا لا أقاتل كي أنتصر، بل كي لا يضيع حقي/ لم تكن تريد أن تنتصر، كنت تريد استرجاع حقك	3	217-371-372
عمر الدول أطول من عمر الناس، عمر الرجال أطول من عمر الإمبراطوريات	4	-299 -294-293 -138 328
رحمتك يا رب	2	331-330
ناموا كقتلى واستيقظوا كأسرى	2	366
عربة يجرها حصانان أسودان	2	53 -22
جهز حقيبته وصندوقه الخشبي	الحقيبة 2، والصندوق 3	408 -393 -53
اعتصر جبينه بأصابع يده اليسرى	18 مرة	–116- 99- 28 – 19 -285-155- 152 -146 -271 -266-371 -287 -337 -235-324-289 348

كانت فلسفة الحاج خالد ومن قبله والده الحاج محمود، أنهم يقاتلون لحفظ حقوقهم وليس لينتصروا، فقتالهم لكي لا تضيع أرض فلسطين، لذلك قدّموا أرواحهم فداء فلسطين، وما زال أهل فلسطين وغيرهم يقاتلون لكي لا يضيع حق فلسطين حتى يومنا الحاضر. وهذا ما يدعمه القول الآخر:(أن عمر الرجال أطول من عمر الإمبراطوريات)، فصحيح أن الرجل قد يموت في دفاعه عن بلده لكن باقي الرجال يواصلون، أما الدول فإنها تموت؛ ففي روايتنا مرّ على رجال فلسطين ثلاث دول، اثنتين منهما انتهتا (العثمانية والإنجليزية)، والثالثة (الصهاينة): ستلحق بهما عاجلا أم آجلا. وهذا الكلام يدحض مقولة (عمر الدول أطول من عمر الناس).

تكرار المشاهد:

المشهد	التردد في النص	الصفحة
ينزل على ركبتيه ، يرفع قائمتها اليمنى ويقبل حافرها ، ثم يعيدها ويرفع اليسرى ويقبلها ويعيدها مكانها	5 مرات	333- 122- 81 - 30 373
مشهد لقاء خالد بياسمين في حقل الذرة.	3	103 -94-82
مشهد رحيل الراهب من الهادية	3	468 -393 -53
مشهد شرب القهوة	2	48 -15

إن في تكرار هذه المشاهد دلالة على مدى أهميتها من بين مشاهد الرواية الأخرى، وأهميتها بالنسبة لشخصيات الرواية، فالخيل وتقديرها بتقبيل حوافرها يبين عظَم مكانتها عند أصحابها، وقد كان أول من قام بهذا العمل طارق ابن السعادات، وكررها خالد من بعده.

ولقاء خالد بياسمين يدل على مكانة ياسمين عند خالد بطل الرواية؛ فهي الوحيدة التي ذكر الكاتب لقاء خالد بها وكذلك ارتباطها بالحمامة التي كانت تشبهها، كانت ياسمين محطة في حياة خالد لكنها عاشت بمنديلها السكري حتى استشهاده.

العتبات

هو مصطلح جديد في عالم الرواية وهو ما يسمى بالنص المصاحب أو الموازي أو المناص وهو فضاء يشمل كل ماله علاقة بالنص من عناوين رئيسية و عناوين فرعية ومقدمات وذيول وتنبيه وتقديم ... إلخ.

إنها تمثل المداخل والبوابات التي تجعل المتلقي يمسك بالخطوط الأساسية التي تمكنه من قراءة النص وتأويله لأنها تربط علاقة جدلية مع النص بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ويرجع أصل هذا المصطلح في اللغة إلى عَتَبَة الباب التي يُوطَأُ عليها.[359]

عتبة العنوان

اهتم نصرالله في اختيار العنوان لأنه واجهة النص، ولكونه الاسم الشخصي له، فهو الممر الضروري الذي يخدم الحكاية في تلقيها، إذ يشير إليها ويختصر مسارها، إنه عتبة القراءة وهو من جهة أخرى بدؤها. يعتبر مدخلا أساسيا في قراءة الإبداع الأدبي والتخييلي بصفة عامة، والروائي بصفة خاصة، وهو العلامة التي تطبع الكتاب أو النص وتسميه وتميزه عن غيره. وقد أكد النقاد على أن العنوان بنية مفتقرة تركيبيا ودلاليا؛ تركيبيا: لأنه خطاب ناقص النحوية أو لا نحوي بامتياز، فثمة طرف محذوف دوما، ونادرا ما يأتي العنوان بصيغته التركيبية الكاملة، ودلاليا: لأنه لا يشتغل إلا مع النص الذي يؤسس دلاليته على أنقاضه.

يعد العنوان مظهرا دلالياً فاعلاً من مظاهر النص الأدبي، إذ يعمل على تجسيد درامية النص وشعريته، فهو المفتاح الدلالي الذي يفتح العوالم المختبئة في النص، ويمكن وصفه بالعقل الظاهر في جسد النص فهو فرع لأصل النص؛ لذا يختار الكاتب عنوانه بعد الانتهاء من النص.[360]

كما استخدم نصرالله العنوان دلالة مغايرة لمعناها المقصود في النص، مثل استخدامه عنوان (الملهاة) والتي قصد نقيضها. وهذه الأوصاف ترتبط بالمستوى الدوني للإشارة إلى أن النص الروائي الذي يكتبه نصرالله يثير دائما قضية مأساوية قائمة على الرؤية الفجائعية والسخرية والاستهزاء وهي نقطة أساسية في روايات نصرالله جميعا.[361]

ومما يلاحظ في العنوان في روايات نصرالله: هو غلبة النمط الإسمي (زمن الخيول البيضاء، طيور الحذر، أعراس آمنة..)، وذلك لأن الإسم أكثر استقرارا وثباتا، وهو بهذا معادل للبقاء والصمود، أما النمط الفعلي للعنوان فيوحي بالتزحزح وعدم الثبات وهو ما يرفضه الفلسطيني.[362]

---

[359] محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، *مختار الصحاح*، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، (بيروت: المكتبة العصرية، 1999م)، ص199.

[360] محمد عبيد وسوسن البياتي،*الكون الروائي*، ص20.

[361] محمد عبيد وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة*، ص15-18، (بتصرف).

[362] محمد عبيد وسوسن البياتي،*الكون الروائي*، ص20.

قسم نصرالله روايته الى ثلاثة أقسام، وعنون لها بعنوان خاص رئيسي: (ريح/ وتراب/ وإنسان) استطاع الربط بين هذه الأجزاء عبر الشخصيات التي تنمو وتنتقل من جزء إلى آخر، وعبر تطور الأحداث التي تعبّر عن سيرة فلسطين في انتقالها من عهد إلى عهد ومن مخاطر إلى أخرى.[363]

وإذا أردنا الربط بين مناسبة هذه العناوين ومضمون الحوادث التي تمرّ بها، نرى أن كتاب "الريح" يستعرض الخيل وعلاقة الفلسطيني بها، وكذلك الريح تحمل التراب معها وكذلك الأخبار وقد تحمل إنذارا، فهذه الريح تمهّد لحياة ستعصف بأهل هذه القرية، والتي ستمر بهم في الكتاب الثاني "التراب" الذي خلق الله منه البشر والتراب هو الأرض التي يتمسك بها الفلسطيني، والتي سيبذل الغالي والرخيص لأجل المحافظة عليها، سواء أكان فوقها أو تحتها فالمهم عنده ألّا يفارقها، لكن الآخر (المقابل للفلسطيني) هو أيضا من البشر يريد التراب، لكنه لا يحمل تلك الصفات النبيلة، فيتعاهد مع الشرّ ويتآمر على الفلسطيني ليسحب التراب من تحت أقدامه، ويشرده ليعيش إنسانا أو شبه إنسان كأنه أكياس حُمّل على الشاحنات وطُرد؛ أخذوا منه ترابه قسراً، ونقلوه لتراب آخر يلفظه؛ تراب اللجوء والتشرد حتى يومنا الحاضر، لكن من بين هذه المأساة، ومن بين ملهيات الحياة؛ ما زال هذا الفلسطيني الإنسان نظره على تراب أرضه يحلم بالعودة إليه مهما طال الزمان، وهو ما كانت تخشاه منيرة حينما كانت تردد بعد أن رُحّلت: "عمّي يا أبو الفانوس /نوّر لي عا العتمة /خوفي الطريق يطول يابا /ويطول معك همّي /ويطول معك همي.[364]

ثم عمد نصرالله لتقسيم هذه الأقسام إلى(عناوين داخلية) (عناوين فرعية)، مشاهد قصيرة لتدل دلالة واضحة على الحدث السردي الذي يختص به العنوان، معنونة بأكثر من صيغة على المستوى التركيبي؛ وهي:

- اسم (مفرد أو جمع): الهبّاب، المقاطعة، أشواق، أم الفار، المناديل، المحرمات، البرج، (يافا– القدس)، قذيفة أو اثنتان، الطوفان، الطيف، البصقة، الوصية، الحمْلة، الإسبارطي، المصيدة، الضباب، الفراغ، الصّفعة.
- أسماء معطوفة : السمسار والشاري والبائع، مزارعون حراثون ورعاة، الليل والنهار، خنجر ومخدة بيضاء، دم وخنجر، الخطوة والزمن.
- اسم (مفرد أو مثنى أو جمع) موصوف :دروس خصوصية، ديوك رومية، الظل الطويل، الحكاية الطائرة، نهاية ثانية، نهاية أولى، مقدمات لاحقة، أحلام صغيرة، حروب غريبة، سرّان دفينان، الصرخة الأولى، مفاوضات طويلة، قرآن كريم، نظرة مختلفة، المحترمون السبعة، انتصار متأخر، يوم جديد، الليلة البيضاء، الليلة السوداء، نار صامتة، سحابة سوداء، الظل الطويل، هدوء جاف، أحلام طائشة، سرّ عام.
- جملة اسمية غير تامة أو اسم مضاف إلى معرفة: وصول الحمامة، عودة الحمامة، عودة الهبّاب، صحون منيرة، صحون سمية، جسر العاشقين، أم الفار، الليل خلسة، سر القتلى، سرّ عامّ (أضافة إلى نكرة)، سنة البنات، دلال امرأة، أرض الأفراس البيضاء، شياطين البرمكي، عثرة الحكمة، نداء الطبيعة، لعنة الإسم، عودة العربة السوداء، وصول إلياس سليم، أحباب على الباب، أنين في الليل، هذه أنا، عسل للبيع، رصاصة بعد صلاة

---

[363] إبراهيم نصرالله، مقابلة شخصية، عمان، الأردن، 29 آب 2014.

[364] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، قالتها منيرة وهي محمّلة في الشاحنة لتنقل بعيدا عن أرضها، ص506.

الصبح، ثلث الحياة، غسق الإمبراطورية، مهرة من الصين، رجال بعباءات مقصبة، وادي الصّرار، خمس نجوم، أحزان عفاف، وصول غريتا غاربو، ملك النهايات، بحار يافا، حكمة بترسون، عصر منُولي، ليلة روزلين، سر الزهرة الحمراء، العودة من الشام، أحزان العزيزة، زهرة الماضي، رصاصة في القلب، شرفة النار، وجها لوجه، وصول ريحانة، سرّ الرصاصة، حافة القيامة (تكرر مرتين)، أبواب الريح، رصاصة في الفجر، عصا الجنرال، أفول الشهباء، الليل وحده، حمدان يتذكر، جمل إيليا، أعراس الهادية، خيال الأدهم، رياح الهبّاب، أحباب على الباب، مواسم الرياح.

- شبه جملة: على عتبة الدير، تلك الظهيرة، ذلك الفلاح، يوم حمدان، ذلك المساء، ذلك الليل.
- جملة فعلية : حملتها الريح، انكسر الشر، وخبأت السر، وقالت الحمامة شيئا.
- سؤال: من مات؟
- ومرة.... وصاح: الوغد!، وصرخ: وجدتها، وصاح: إنني أحلم.

إن أكثر صيغة استخدمها نصرالله كانت صيغة (جملة اسمية غير تامة أو اسم مضاف إلى معرفة)، وقد ذكرنا سابقا السبب في اختياره النمط الإسمي لعنوان الرواية الرئيسي، في بداية عتبة العنوان.

عتبة الإهداء

والقصد منها جذب انتباه القارئ إلى دور المهدى له في حياة المهدي،[365] ولا يخفى دور الشهود الذين أمدّوا نصرالله بشهاداتهم في الرواية، فما كان من نصرالله من خلال هذه العتبة إلا شكرهم على هذا الدور. وقد أشرنا إلى ذلك في وصف الرواية.

عتبة التصدير

تستند هذه العتبة إلى ما يسمّى بالتناص أو التفاعل النصي، أي أن هناك شبكة خارجية تتداخل مع الشبكة الداخلية للنص وتتلاقح معه وتصبح جزءا منه. يقع النص المصدَّر في فضاء وسطي بين العنوان والنص (بعد الصفحة الأولى). ولهذا الموقع المميز غايات، أهمها: وظيفة التعليق على العنوان، ووظيفة التعليق على المتن النصي، ووظيفة الكفالة، ووظيفة الحضور والغياب، فضلا عن الغايات الجمالية التي يسببها وجود هذا النص في هذا الموقع. [366]

---

[365] محمد عبيد وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة*، ص25.

[366] محمد عبيد وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة*، ص35و36، (بتصرف).

وفي رواية "زمن الخيول البيضاء"، كانت عتبة التصدير بالقول: "لقد خلق الله الحصان من الريح.. والإنسان من التراب.(قول عربي)... والبيوت من البشر (إضافة)!. وهذه إشارة لأسماء الكتب التي تضمّها الرواية؛ كتاب الريح وكتاب التراب وكتاب البشر، وعلاقة هذا النص مع عنوان الرواية ونصها الداخلي.

عتبة الهوامش

تعتبر الهوامش عتبة نصية تشتغل في ثنايا النص لتوضح بعضا مما يعتري النص من غموض، موقعه أسفل الصفحة أو في نهاية الكتاب، ليضيف معلومة جديدة لا يمكن اشتغالها في المتن، فهي المواضع التي يكشف فيها المؤلف عن نفسه بطريقة أو بأخرى.

والعمل الأدبي الذي ينقصه الهامش، يؤدي إلى اهتزاز البنية الفنية وخلخلة المعلم العام للرواية، لذلك حرص إبراهيم نصرالله على استخدامه، خاصة وأن روايات نصرالله تجاوزت حدود المحلية، فقارئ رواياته ليس محددا فليس كلهم عرب أو من فلسطين، وليس شرطا أن تكون خلفيته الثقافية عالية المستوى، فشرائح المجتمع المتعددة جمهوره، لذا تحتاج إلى هذه الشحن التعريفية والتي تؤديها الهوامش.[367]

جاءت الهوامش في "زمن الخيول البيضاء" لخدمة عدة أغراض، منها:

- توضيح بعض المفاهيم: المراد منها ليس ظاهر المعنى، كلمة (مهرتكم)،[368]وصف يستخدمه الفلاح للدلالة على البنت تأدبا واحتراما. (تخ).[369]
- توضيح بعض العادات والتقاليد الواردة في النص: عادة تقديم القهوة.[370]
- التعريف بشخصية: كتعريفه بشخصية جورجيو رجل الدين،[371] أو شخصية إلياس سليم،[372] الضابط بترسون،[373] سليمان المرزوقي،[374] سليم بيك الهاشمي،[375] الجنرال أندروز،[376] أسعد نسناس،[377] وهي من الشخصيات التاريخية التي ذكرها في الرواية.
- التعقيب أو التعليق على حدث في الرواية وتوضيح مناسبته التاريخية: كالتعليق على حادثة إعدام جمال باشا لابن فوزي العظم.[378] وحادثة الانتقام للشهداء الذين أعدمتهم سلطات الانتداب،[379] وافتتاح محطة اذاعية

---

[367] محمد عبيد وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة*، ص40-42، (بتصرف).

[368] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص15.

[369] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص415.

[370] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص20.

[371] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص32.

[372] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص66.

[373] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص259.

[374] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص297.

[375] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص300.

[376] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص313.

[377] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص416.

[378] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص136.

ناطقة باللغة العبرية،[380] لبس الكوفية [381] تصعيد العنف البريطاني،[382] خبر سماح ملك السعودية لبعض المجاهدين من الإقامة بمملكته،[383] إعدام عبد السلام البدري،[384] جواسيس الثورة،[385] خبر العربي الإسبارطي،[386] ظهور "اثنين البعوث" بعد قتل الحاج خالد،[387] ترحيل الجالية الألمانية من فلسطين،[388] ظهور الوطنية الخنثوية،[389] سرّ الزاجلة،[390] المرابين،[391] زواج أنس ابن سليم بيك،[392] رحيل الهاشمي للبنان،[393] شوكت مختار،[394] قمع الصهاينة للثورة،[395] فوزي القاوقجي ووقف الثورة،[396] تخاذل الهيئة العربية العليا في فلسطين ودورها في التضليل السياسي.[397]

- إضافة معلومة: التعريف بمدرسة النجاح بنابلس،[398] عرضه لفكر جابوتنسكي عن الشعب الفلسطيني،[399] نص من رسالة موجهة للمندوب السامي،[400] التعريف بتنظيم فصائل السلام،[401] جنرال برنارد،[402] الملازم غازي الحربي،[403] عدم التنسيق بين جيوش الانقاذ.[404]
- ذكر أمر لم يشأ ذكره في المتن: كأبيات الشعر التي يكتبها بترسون ليلاً فقط، أما شعره في غير الليل فقد ذكرها نصرالله داخل المتن،(ص 370).[405] شهادة أحد شهود الرواية.[406]

---

[379] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص262.

[380] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص269.

[381] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص314.

[382] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص364،337.

[383] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص339.

[384] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص347.

[385] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص352.

[386] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص359.

[387] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص376.

[388] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص378.

[389] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص380.

[390] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص390.

[391] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص397.

[392] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص399.

[393] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص461.

[394] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص469.

[395] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص486.

[396] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص488.

[397] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص490.

[398] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص218.

[399] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص276.

[400] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص343.

[401] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص345.

[402] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص375.

[403] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص487.

[404] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص490.

- يلاحظ كثرة الهوامش في الكتابين الثاني والثالث، وقلتها في الأول؛ ويرجع ذلك لنفس سبب كثرة كلام الراوي في هذين الكتابين وقلته في الأول كما ذكرنا سابقا في مبحث الاقتباس من كلام الراوي.

عتبة الاستهلال

وهي: لحظة المواجهة الأولى مع القارئ واقتناصه، وادخاله في عالم الرواية.[407] ويكون أول جملة مباشرة بعد العنوان الفرعي، وهي من دأب المبدعين لشدّ انتباه القارئ. وهو ما يحرص عليه نصرالله في جميع رواياته؛ وكان الاستهلال الأول من الرواية، عندما صوّر لنا من خلال راويه العليم مشهد وصول الحمامة:"معجزة كاملة تجسّدت... أمام المضافة، تحت شجرة التوت كان الحاج محمود يجلس بجانب ولده خالد مع عدد من رجال القرية، رأوا في البعيد غباراً قادماً، داهمه حسّ غريب، ومع مرور اللحظات، كان الغبار يتلاشى ويحتلّ مكانه بياض لم يروه من قبل، ظل توهجه يزداد شيئاً فشيئاً حتى بان كله. ولك يكن هناك ما يفتنهم أكثر من جمال مهرة أو حصان. قال الحاج محمود ذاهلا: أترون ما أراه؟ لم يسمع جوابا، التفت إليهم فوجد أن المفاجأة أخذتهم، عاقدة ألسنتهم. عمّ صمت طويل، لم يكن يقطعه سوى ذلك العَدْو المجنون للكائن الذي بدا وكأنه قد خرج من حلم...".

لقد كفِل هذا الاستهلال جذب القارئ وتحريك مشاعره وتجييشها فقد وضعه نصرالله في المشهد بكل تدفقاته الروائية وتفاصيله وأحاسيسه وحركاته، متنقلا بعدسة كاميرته لإظهار تفاصيل المكان، فبات القارئ مندهشا مع شخصياته مبهورا بهذا المشهد متحمسا للكشف عن ملابسات هذا المشهد في الرواية.

أما استهلاله في العناوين الفرعية، فكان يتراوح بأكثر من صيغة:

الفعل المضارع المجزوم: لم يعرف أحد من أين بزغ هذا الاسم، لم يكن جرح خالد قد التأم بعد، لم يخفَ على أحد أن الحمامة التي جاءت غير تلك التي ذهبت.

الفعل المضارع: يذكر الحاج محمود تماما ذلك اليوم، يتذكر الخوري جورجيو ذلك اليوم الشتائي.

الجملة الاسمية: فرحة خالد بعروسه كانت تفوق الوصف، سنة الخير كلها خير.

الفعل الماضي: اندفعت الهادية كلها للعمل، اختفى الهباب طويلا، صرخ الهباب.

شبه جملة: لثلاثة أيام متواصلة رفضت الحمامة أن تغادر مكانها، منذ وصوله بدا جورجيو رجل دين محترم، ذات ليل فتح خالد عينيه.

---

[405] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص260و261و280و305و307و366و375و402.

[406] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص492.

[407] محمد عبيد وسوسن البياتي، رواية *ما بعد الحداثة*، ص44.

ومن خلال هذه الاستهلالات يمهّد نصرالله للمشهد الذي سيرويه تحتها؛ ففي عنوان "عسل للبيع" يستهل المشهد بـ"فرحة خالد بعروسه كانت تفوق الوصف"، ليحدثنا بعدها عن تعلق خالد بعروسه وفرحه بها حتى أنه كان يحملها ويدور بها البيت مناديا عسل للبيع، ولشدة افتتانه بجمالها كان يقول أنها أجمل من الشمس والقمر فلم يفق على نفسه إلاّ وقد طلقها، فينقلب فرحه غمّا وحزنا، ثم تحلّ الأزمة ليرجع الفرح ولكن هذه المرة ليس طويلا، إذ يباغت الموت هذه الفرحة ويسرقها، وينقلب فرح خالد إلى تعاسة وهذيان يعيشه لينقطع فجأة بوصول الحمامة.

كانت بعض الاستهلالات تكملة لخاتمة عنوان فرعي سابق؛ فمثلا عندما أخبرنا الكاتب عن (الهباب) في الاستهلال الأول، قال: "لم يعرف أحد من أين بزغ هذا الاسم"، وكانت نهاية هذا المشهد: "بعد يومين جاءه ثلاثة جنود أتراك وأخذوه. غاب". هنا قطع نصرالله سرده عن الهباب ليكمل الكلام عنه في استهلال عنوان آخر فيقول: "اختفى الهباب طويلا، وحين عاد كان قد تغير كل شيء فيه"، ثم ختم المشهد: "وبات اسمه على كل لسان"، ليستهل به عنوانا جديدا"، ليس ثمة سر كبير كهذا يمكن أن يخفى، طار خبر تعينيه.."[408].

عتبة الخاتمة

إن سلسلة الأحداث التي يسردها الراوي وتؤديها الشخصيات لا بد لها من أن تصل في نهاية الأمر إلى خاتمة معقولة لها، وهذه الخواتيم ترتبط ارتباطا وثيقا بالبدايات التي أفلح الراوي في الإمساك بخيوطها الأولى، وهذه الخواتيم ما هي إلا انتقال من عالم المتخيل إلى عالم الواقع. وغالبا ما تاتي الخواتيم مفتوحة تحتمل تأويلات عدة، وهنا تكمن خطورة الخاتمة؛ فهي تضع القارئ في مواجهة سردية مع النهاية فتكون احتمالات التأويل متعددة لديه. [409]

استهل نصرالله "زمن الخيول البيضاء" بـ (وصول الحمامة)؛ رمز النقاء والشرف الكرامة والسلام ...والنقيض كان العنوان الختامي: (عتبات الجحيم) العنوان كفيل بحد ذاته ليضع القارئ في الصورة. فالهدوء الذي سيّرنا به نصرالله بالاستهلال والذي تتدرج به معنا عبر الرواية من حال إلى آخر توقف بنا في محطته الأخيرة عند عتبة الجحيم؛ لم تكن عتبة واحدة بل عتبات، إن ما عاشه أهل القرية في آخر أيامهم بالقرية كان جحيما: "أقفلت أبواب الحياة تماما نفق ما تبقى من مواش لعدم وجود شيء تأكله، ولم يعد هناك فسحة للخروج لا للزراعة ولا لإحضار طعام ولا حتى لصلاة. وحده الحمام كان يطير للبحث عن طعامه، في البداية كان يعود سريعا، وحينما اشتد الحصار بدأ يغيب طويلا، إذ لم يعد قادرا على التقاط طعامه في السهول القريبة.. بعد أسابيع يائسة ومناقشات لم تفض لشيء، بدأ الناس بجمع أشيائهم أمام بيوتهم بانتظار يوم الرحيل.. ستأتي سيارات الأمم المتحدة، وتنقل الجميع.. عليكم مغادرة البيوت والانتظار هنا على طرف الشارع العام.. هذا ممنوع .. أن تعودوا لبيوتكم من جديد.. حين أطل الصباح، كانوا في أسوأ حالة يمكن أن يكون عليها بشر.

---

[408] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص45،27،12.

[409] محمد عبيد وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة*، ص51و52، (بتصرف).

مبتلون بالماء ومطعونون بالبرد وملوثون بالطين.. نصبت خيام صغيرة، وتحولت أغطية إلى خيام (من الجحيم أن تكون لاجئا في أرضك).. وراحت القذائف تتساقط على القرية.. بدأت الهادية تصغر يوما بعد يوم، تتلاشى أمام عيونهم وهم ينظرون إليها، وتحوّل الدير إلى سحابة من دخان، وعندها أدركوا أنهم يريدون محو القرية من الوجود.. حين وصلت العربات الكبيرة... لم يكن باستطاعة الناس تسلقها، كان الانتظار قد أنهكهم تماما. بصعوبة عثرت سمية على ساقيها اللتين لم تعدّ تحس بوجودهما.. نظرت إلى التلة حيث قبر زوجها.. الحمامة ألا ترونها إنها هناك.. عند قبره.. اتركوني أريد أن أراها مرة واحدة فقط.. انحدرت شلالات الدمع على وجه منيرة وأحفادها وعفاف وأولاها.. دوّت عدة انفجارات، التفتوا فإذا بالنار تلتهم عددا من بيوت القرية.. وسقطت قنبلة أخرى فاشتعل برج الحمام. راحت العزيزة تراقب النار التي تتصاعد ملتهمة البرج وما فيه، وعندها رأت ذلك المشهد الذي لن تنساه أبدا. كان الحمام يطير محترقا، قاطعا مسافات لم تفكر يوما أن حماما بأجنحة مشتعلة يمكن أن يبلغ نهاياتها، وحيثما راح يسقط في البساتين والكروم والسهول المحيطة كانت نار جديدة تشتعل. وحينما وصلت العربات إلى النقطة العالية التي تتيح للناس مشاهدة الهادية للمرة الأخيرة، كانت ألسنة الحرائق تلتهم الجهات الأربع"،[410] هنا أسدل نصرالله الستار وترك القارئ في هذه السطور غارقا في دموعه يفكر في الجحيم الذي عاشه أهل الهادية وفي الجحيم الذي ينتظرهم.

عواطف مختلطة طاف بك فيها نصرالله من خلال الرواية من حب وكره وهدوء وضجيج شوق وحنين.. يأتي بك إلى نهاية المطاف وقد غمرك الحزن العظيم لكارثة شعب، ويغمرك أيضا الغضب الشديد على كل مَن كان له يد بهذه الكارثة. إن مصير أهل الهادية كان مصير كل الفلسطينيين، فالأعداء الذين توالوا على الهادية وجرّوها لتقع بين يد المحتل كانوا هم المسؤولون؛ فكانت البداية مع الأتراك وقد كانوا في أوج ضعفهم؛ الضعف الذي أتاح لكل ظالم ممن كانوا يتولون أمور البلاد العربية أن يعيثوا الفساد في أراضيها دون أن يدري بهم أحد أو يحاسبهم، ثم تبعه العدو الأكبر (الإنجليز) الذين سلّموا فلسطين بعد أن أنهكوها ضرائب وحروب إلى العدو الخبيث الصهيوني، وكل ذلك لم يكن لهم لولا العدو الداخلي من العملاء والجواسيس ومن الزعماء الذين تاجروا بشعب فلسطين لمصالح شخصية، ويضاف على كل ذلك طيبة أهلها التي جعلتهم يصدقون الوعود وكل ما يقال لهم ليجدو أنفسهم في جحيم الغربة.

ولكن ومع كل هذه القتامة وهذا السواد فيما حصل لشعبنا الفلسطيني إلا أن نور الأمل ما زال مضيئا؛ فجهود أهله وجهود الشرفاء في كل العالم ما زالت مستمرة حتى تحقيق وعد الله بالنصر.

لقد أبدع نصرالله في شحذ وإيقاظ الهمم ليردّ على كل مدّع أن الفلسطيني باع أو نسي، ولتصل لبن غوريون في قبره أن الشعب الفلسطيني لا ولن ينسى وطنه.

---

[410] إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، ص506.

أما بالنسبة لخاتمة بعض الأحداث أو لشخصيات في الرواية تركها مفتوحة أيضا، نذكر منها:

-الحمامة: إحدى شخصيات الرواية الرئيسية لكن الكاتب لم يكمل لنا حديثه عنها بعد استشهاد الحاج خالد وفرارها، ورؤية منيرة لها عند قبره في آخر مشهد، ويمكننا القول بما أن الحمامة كانت رمزا لفلسطين فالحمامة لا تموت بل تبقى خالدة بتناسل أجيالها، وهي دائما في انتظار فارسها الذي يكمل معها مسيرة التحرر ليُرجع لها زمنها ("زمن الخيول البيضاء") زمنا فقدته وتصرّ على إرجاعه مهما طال الزمان.

-الرجال من عائلة الحاج خالد؛ ناجي ومحمود: فلم يصرح إن كانوا خرجوا مع عائلتهم من النساء أو استشهدوا في المعارك، وكأن الكاتب يقول لنا هناك كثير من الرجال والنساء والأطفال وحتى العائلات الذين لم يُعرف مصيرهم لكن الأغلب قد قتلوا إما من القذائف التي لم تترك مكانا إلا ودكّته، أو ذبحا على أيدي العصابات اليهودية التي كانت تتسلل ليلا البيوت وتقتل كل من فيها، أو إعداما إذا ما خالفوا قانونا.

-الأب منولي: بعد أن هجم أهل الهادية عليهم واختفى فلم يره أحد حتى في الدير الذي نسف تماما، ونحن نرى أن الأب منولي انتقل لمكانه الأصلي المستعمرة اليهودية، فقد كان كلامه واضحا بانحيازه مع اليهود، وما كان حضوره كأب للدير إلاّ كمهمّة لتسهيل الحصول على الكواشين الأصلية للأراضي التي كانت بالدير ليمسح أي دليل على ملكية الفلسطسنين لتلك الأراضي، وكما بيّنا في مبحث شخصيات الرواية.

-نهاية أسعد النسناس واليهودي ليفي: فلم يذكر الكاتب ماذا فعل بهم أهل الهادية بعد أن احتجوزهم وخبّؤهم من بعد أن جاءوا لشراء إحدى الأراضي في القرية، لكن نهاية العملاء كالنسناس ومن معه هي القتل فهذا ما يستحقه جزاء بيعه أرضه وتعاونه مع العدوّ.

الخاتمة

في نهاية دراستنا حول رواية "زمن الخيول البيضاء"، والتي تناولتها من ناحية أدبية تحليلية، وجدنا أن الرواية تحوي كنزا جمعه نصرالله بين دفّتيها وأخرجها كلّا متميزا عن باقي سلسلة روايات الملهاة الفلسطينية؛ حيث حسم بها كثيرا من الأقوال والاتهامات حول ضياع فلسطين، فبين لكل طرف ما له وما عليه، وأظهر من خلالها أيضا الجمال والثقافة التي كانت تنعم به فلسطين، والذي يجهله كثير من أولادها، فهو بهذا العمل قام بحفظ تراث عميق وأصيل وأحيا بالذاكرة تلك العادات والتقاليد التي ترسم الهوية الفلسطينية، وتحفظها عبر الأجيال. ولكي تحقق هذا الهدف وتترك تلك البصمة؛ قام بإخراجها كما يخرج الفيلم السينمائي، بحلّة قوية وشاملة على الصعيد الفني والشكلي والجوهري، فأبدع في تمكين بناءها على الرغم من كبر حجمها؛ ونلخص هنا خرجنا به:

– كان للمعاناة التي عاشها إبراهيم نصرالله في صغره وفي عمله وسفره، أكبر الأثر في تكوين الشخصية الإبداعية الذي تميّز بها نصرالله وانعكست على كتاباته وأعماله، والتي أكسبت أعماله حضورا جماهيريا وأكاديميا ودوليا.

– اعتنى نصرالله بقالب الرواية؛ فبدأ بعنوانها فاختاره جاذبا ومُلهما، وقرنه بأجمل مخلوقات الله وهو الحصان، الذي يحتل مكانة عظيمة في قلوب الناس.

– وكما كان العنوان الرئيسي جاذبا كانت العناوين الفرعية أيضا جاذبة ومتنوعة الصياغة، بحيث تثير تساؤلات القارئ دافعة له للقراءة، كما جاءت هذه العناوين ململة للموضوع الكبير الذي تحويه الرواية، وليضفي نصرالله على روايته الكبيرة شيئا من التخفيف على القارئ، قام بتقسيمها إلى ثلاثة كتب رئيسية (الريح، البشر، البيوت) بحسب الزمان الذي تحكيه.

– جاءت شخصياته متنوعة ومنطقية كتنوعها ومنطقيتها في أي بيئة حقيقية، واختار لها أسماء من خلفيته الثقافية والدينية والاجتماعية، فكانت ملامسة لبيئة القارئ ولم يشعر بغرابتها، كما تنوع في تركيبه لهذه الأسماء وفي تقديمها أثناء سرده للرواية، وكل ذلك ساهم في إغناء الرواية.

– كانت الشخصيات مبنية بشكل متكامل خارجيا وفكريا واجتماعيا ونفسيا؛ بحيث تتشكل صورتها واضحة في ذهن القارئ فيفهم دورها وأفعالها.

– كانت الشخصيات تتراوح بين الحقيقة والخيال، حيث وظّف نصرالله بعض الأسماء الحقيقة كون الرواية تاريخية، فكان توظيفه لتلك الشخصيات في محلّه، حيث أعاد إحيائها في الذاكرة وإحياء دورها في قضية فلسطين، سواء كانت من الشرفاء أم العملاء.

– كان خالد الشخصية البطولية مع فرسه الحمامة وقد دارت أحداث الرواية عنهما، فصوّر لنا العلاقة الراقية بين العربي وفرسه وكأنها امرأة، تُعشق وتصان وتُكرّم ولا تُهان، لذا اتخذها نصرالله رمزا لفلسطين، فكما لا يمكن لأي شريف التخلي عن امرأته أو فرسه، فلا يستطيع التخلي عن وطنه فلسطين.

– كما كان خالد رمزا لكل مجاهد ومدافع عن فلسطين، وكان رجال القرية أيضا رمزا للذين بذلوا أرواحهم دفاعا عن أرضهم.

– كانت المرأة جنبا إلى جنب مع الرجل، حيث نالت الاحترام والكرامة، وصوّرها نصرالله بأكثر من صورة كما هي في المجتمع الفلسطيني.

– الهادية هي المكان الرئيسي الذي تدور به أحداث الرواية وهي مكان تخييلي، اختاره نصرالله رمزا لفلسطين.

– كما استطاع أن يبني الزمان فيها بحسب أحداثها وشخصياتها بتقنية الاسترجاع والاستباق والتسريع والتبطيء مما أكسبها حركة وتشويقا، دفعت القارئ على مواصلة القراءة بالرغم من كثرة صفحاتها دون أن يشعر بالملل.

– استطاع نصرالله أن ينسج بكلماته وطريقة سرده أسباب ضياع فلسطين، بطريقة وضّحت لكل طرف في هذه الأسباب ما له وما عليه، فبجانب التعاون الإنجليزي اليهودي، كان للعملاء دور كبير في ضياعها مستغلّين ثقة الناس فيهم وطيبتهم الزائدة والتي جعلتهم يطمعون أكثر فيهم، وسواء كان هؤلاء العملاء من الناس الذين عاشوا بين العامة أو الزعماء الذين كانوا يتفقون خفاءا مع اليهود وفي الظاهر يعلنون دعمهم لفلسطين، ولا ننسى دور الدير الذي عرفه الناس مكانا للعبادة الذي نال احترامهم وثقتهم، وتبيّن أنه لا يختلف عن أي معسكر أو دبّابة.

– كما جمع فيها تاريخ فلسطين لثلاث فترات متتالية صور لنا من خلالها كيف حكم الآخر فلسطين ضمن هذه الفترات بشكل موضوعي دون مبالغة، معتمدا عما نُقل له من الشهادات الحية والمراجع الموثوقة؛ فبين لنا كيف كانت حياة الفلسطيني زمن الدولة العثمانية في الوقت التي كانت تحتضر فيه هذه الإمبراطورية وكيف تأثرت فلسطين بهذا الاحتضار، فأوقعها فريسة للآخر الثاني العدو الإنجليزي والذي مارس سياسة تعسفية مع الأهالي والعملاء وأتاح الفرصة للعدو اليهودي الصهيوني بحق الاستقرار على أرض ليست له، ودعمه بالقوانين والمعاهدات الدولية لتضمن له هذا الحقّ حتى بعد خروجها من فلسطين وتسليمها لليهود، اليهود الذين تظاهروا بالمسكنة والضعف ليتحقق لهم التمكّن والاستعداد بكل الوسائل لنيل هذه الأرض وسحبها من تحت أرجل أهلها، فمارست جميع أنواع التعذيب والقتل والتدمير لتمحو أي أثر لأصحابها الأصليين وتاريخهم وترسم من جديد معالم خاصة بها تعود لتاريخ هشّ ومزوّر، ونالت مباركة من زعماء العالم ورؤساء دول عربية، فيصوّر نصرالله الفلسطيني على مدار تلك الفترات لا يقاتل لأجل الانتصار بل كي لا يضيع حقه.

وهذا ما يؤكده نصرالله في روايته بعد 70 سنة من التهجير، حيث يثبت فيها أن هذا الحق له تاريخ والتاريخ له شهود وهذا التاريخ لا يمكن مسحه بقانون أو جرافة، فأمر الله لا يمحوه أمر الإنسان وما زال صاحب الحق يقاتل لاسترجاعه.

– استفاد نصرالله من السينما في تصوير وإخراج الرواية وتقديم عناصرها، موظفا تقنياتها من مونتاج ومونولوج والاسترجاع والاستباق والأحلام.

– كما استفاد من كونه فنانا تشكيليا، فرأينا تأثيره في دقة الوصف وإكساب العبارات ألوانا تنعكس أمام القارئ كما لو أنها لوحة تشكيلية.

– بنى نصرالله روايته بلغة شاعرية متمكّنة، راوح فيها بين الفصحى وقليل من العامية، فاللغة انعكاس للواقع، واستمد اقتباساته من الموروث الديني والثقافي ومن الشهادات الحية التي جمع منها مادته الروائية.

– اعتمد على بنيات ثلاث في أسلوبه: المفاجأة والحلم والرسائل ووظف كلا منها بمهارة أثناء سرده.

– اعتنى بالعتبات التي تدخلنا إلى روح الرواية من عنوان وإهداء وتصدير وهوامش واستهلال وخاتمة؛ فلم ينس إهداء عمله هذا إلى أرواح الشهود الذين استعان بهم، كما لجأ إلى الهوامش لإضافة بعض المعلومات التي تكمل الرؤية للقارئ، ولم يغفل أن يستهل المشهد بعبارات تشدّ القارئ وأن يختمها بقفلة تتناسب مع المشهد.

وفي الختام أقول أن رواية "زمن الخيول البيضاء"، هي وثيقة حية لتخليد تاريخ وثقافة فلسطين وأهله، وحفظ هذا التاريخ من النسيان، وفيها إجابة لكل صهيوني بأن الشعب الفلسطيني لا ينسى ولن ينسى أبدا، وسيبقى شوكة في حناجر الصهاينة مهما طال زمانهم ومهما علو في الأرض، فإن وعد الله آت، وسيعود الحق لأهله.

فرواية بهذا الحجم والزخم والمكانة، نعجز بقدراتنا المتواضعة عن إعطائها حقها مهما اجتهدنا، لذا سيكون هناك بعض الجوانب التي يجد فيها دارسون آخرون مادة لأبحاثهم. وما توفيقي إلا بالله .

المصادر و المراجع

1) إبراهيم فتحي، *معجم المصطلحات الأدبية*، الطبعة الأولى، تونس: التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، 1986.

2)إبراهيم نصرالله، *زمن الخيول البيضاء*، الطبعة السابعة، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2013.

3) إبراهيم نصرالله، *السيرة الطائرة أقل من عدو أكثر من صديق*، الطبعة الثالثة، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون،2012.

4) إبراهيم نصرالله، *صور الوجود السينما تتأمل*، الطبعة الثالثة، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2014.

5) إبراهيم نصرالله، *مقابلة شخصية*، عمان، الأردن، 2014/08/29.

6) أ. أ.مندلاو، *الزمن والرواية*، ترجمة: بكر عباس، الطبعة الأولى، بيروت: دار صادر، 1997.

7) أحمد بستانجي، *إبراهيم نصرالله ورواياته عن فلسطين*، اسطنبول: نون للنشر، 2013

AHMET BOSTACI, İBRAHİM NASRALLAH VE FİLİSTİN KONULU ROMANLARI, İstanbul, Nun yayınılık.2013.

8) ا. م. فورستر، *أركان القصة*، ترجمة: كمال جاد، القاهرة: دار الكرنك، 1960.

9) حسن عليان، "الرواية والتجريب"، *مجلة جامعة دمشق*، العدد الثاني: المجلد 23، 2007.

10) رابح الأطرش، *مفهوم الزمن في الفكر والأدب*، مجلة العلوم الإنسانية، 2006.

11) سليمان الأزرعي، *الرواية الجديدة في الأردن*، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997.

12) شكري الماضي، *الرواية العربية في فلسطين والأردن في القرن العشرين مع ببليوجرافيا*، الطبعة الأولى، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2003.

13) شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، *المستطرف في كل فن مستطرف*، الطبعة الأولى، بيروت: عالم الكتب، 1419هـ.

14) طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي، *ديوان طرفة بن العبد*، تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين، الطبعة الثالثة، دار الكتب العلمية، 2002.

15) عبدالقادر أبو شريفة، حسين لافي، *مدخل إلى تحليل النص الأدبي*، الطبعة الرابعة، عمّان: دار الفكر، 2008.

16) عبدالله بريمي، إبراهيم نصرالله، موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني، الجزء الرابع.

17) عبد الملك مرتاض، *في نظرية الرواية*، الكويت: عالم المعرفه، 1998.

18) عدنان أحمد أبو شبيكه، لغة الرواية في التاريخ الشفوي الفلسطيني بين الفصحى والعامية، *مجلة جامعة القدس المفتوحة للابحاث والدراسات*، عدد 21، تشرين أول 2010.

19) عز الدين اسماعيل، *الأدب وفنونه*، القاهرة، دار الفكر العربي، 2013.

20) محمد أبو الفتوح العفيفي، *في تحليل النص الأدبي*، دار الحسين للطباعة والنشر.

21) محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، *مختار الصحاح*، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الطبعة الخامسة، بيروت، صيدا: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، 1999.

22) محمد الدميري، *حياة الحيوان الكبرى*، الطبعة الثانية، بيروت: دار الكتب العلمية، 1424هـ.

23) محمد صابر عبيد ،*سحر النص، من أجنحة الشعر إلى أفق السرد*، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2008.

24) محمد عبدالقادر، *فضاء التجاوز؛قراءات تطبيقية في إبداعات شعرية وروائية لإبراهيم نصرالله*، الطبعة الأولى، عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2012.

25) محمد عبيد، وسوسن البياتي، *الكون الروائي قراءة في الملحمة الروائية الملهاة الفلسطينية لإبراهيم نصرالله*، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2007.

26) محمد عبيد، وسوسن البياتي، *رواية ما بعد الحداثة، قراءة في شرفات إبراهيم نصرالله*، الطبعة الأولى، بيروت: منشورات ضفاف، 2013.

27) محمد كمال جبر، *سلسلة التراث الشعبي الفلسطيني*، 2010.

28) محمود سالم ثابت، *القضاء العشائري*، من منشورات موقع أم الكتاب للأبحاث والدراسات الإلكترونية، غزة، فلسطين.

29) مرشد أحمد، *البنية والدلالة في روايات إبراهيم نصرالله*، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2005.

30) مرشد أحمد، *الحداثة السردية في روايات إبراهيم نصرالله*، الطبعة الأولى، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010.

31) ابن منظور الأنصاري، *لسان العرب*. الطبعة الثالثة، بيروت: دار صادر، 1414هـ.

32) مها حسن قصراوي، *الزمن في الرواية العربية*، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسة والنشر، 2004.

33) نسرين عقلة، "الدولة العثمانية في الروايات العربية "زمن الخيول البيضاء" نموذجاً"، *مجلة كلية الإلهيات جامعة صقاريا*. العدد 35، 2017.

34)وفاء عوني الخضراء وعالية صالح، "تبادل الأدوار بين الإنسان والحيوان في رواية زمن الخيول البيضاء"، *دراسات*، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد37، العدد3، 2010.

35)بيانكا ماضية، "مع الشاعر والروائي إبراهيم نصرالله". **http://www.odabasham.net** ، (تاريخ التصفح: 06.08.2017)

36) نايات الغربة، نغم "إضاءات على: أديب من وطني –شاعر المقاومة والروائي القدير– أ. إبراهيم نصرالله"، http://watan.n2ta.com، (تاريخ التصفح: 01.08.2018)

37) موقع جائزة كتارا للرواية العربية، http://www.kataranovels.com (تاريخ التصفح: 06.08.2017)

38) غيداء السالم، "فرقة بلدنا الأردنية تعيد توثيق أعمالها الثورية"، http://www.alhayat.com/Articles (تاريخ التصفح: 06.01.2018)

39) نبيه القاسم، "إبراهيم نصرالله في قصائده القصيرة مبدع يعرف كيف يُعيد للشعر حيويّته"، http://www.nabih-alkasem.com (تاريخ التصفح: 06.08.2017)

40) الموسوعةالحديثية **http**://www.dorar.net، (تاريخ التصفح: 18.01.2019)

41) https://ar.wikipedia.org

42) https://marefa.org ، (تاريخ التصفح: 18.01.2019)

43)http://alkhaleejonline.net/articles، (تاريخ التصفح: 06.01.2018)

44)https://www.arab48.com، (تاريخ التصفح: 06.08.2017)

45) موقع الجائزة العالمية للرواية العربية، (تاريخ التصفح: 06.08.2018) https://www.arabicfiction.org/ar/winnerannouncement2018

46)https://www.youm7.com ، (تاريخ التصفح: 18.01.2019)

47) https://aawsat.com/home/article، (تاريخ التصفح: 18.01.2019)

48)http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=149164&r=0، (تاريخ التصفح: 18.01.2019)

49) جريدة الرأي الأردنية، http://alrai.com، (تاريخ التصفح: 18.01.2019)

50)**https://almustaqbal.com/article/336911**، (تاريخ التصفح: 18.01.2019)

51)**https://www.addustour.com/articles** ، (تاريخ التصفح: 06.08.2017)

52) https://www.paldf.net/forum/showthread.php?t=23076، (تاريخ التصفح: 18.01.2019)

53) https://www.madarcenter.org، (تاريخ التصفح: 06.08.2018)

54) قاموس المعاني almaany.com

السيرة الذاتية

وُلدَت في الأردن. أتمّت تعليمها الأساسي والثانوي في الأردن، تخرجت من الجامعة الأردنية عام 2003 من كلية الشريعة تخصص أصول الدين.

عملت معلّمة لمادة التربية الإسلامية في المدارس الحكومية في الأردن بين الأعوام 2004- 2010.

عملت مدرّسة للغة العربية في البرنامج الصيفي لكلية الالهيات في جامعة صقاريا في العامين 2008، 2009 على التوالي.

نالت شهادة الدبلوم العالي في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات في التربية، عام 2010 من الجامعة الأردنية.

بدأت عملها محاضرة للغة العربية في كلية الإلهيات جامعة صقاريا من عام 2011 حتى الآن.